حمّور زيادة

دار العين للنشر

رواية

الغرق

حكايات القهر والونس


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

الغرق

حكايات القهر والونس

روايـة

حمّور زيادة

دار العين للنشر

الغرق

حكايات القهر والونس

(رواية)

حمّور زيادة

الطبعة الأولى / ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م



دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: أيمن حسين
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٥٣٠٢ /٢٠١٨
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 532 - 2

إليكِ أنتِ.. طبعًا

لم أكن أعرف
أن عظام النساء كان مقدرًا لها
أن تكون متحفًا للمآسي
كما لو أننا كتب علينا أن نحمل البحر
دون أن نغرق!
..
لطالما تعجبت
كيف أن النساء اللواتي
يحملن الحرب في عظامهن
مازلن ينبتن الورود
من بين أسنانهن!
..
أتعلم أن أكون صبورة
مع شفائي
وألا أغلق فمي أبدًا
عندما تصرخ ندوبي!

إيجوما أومبيينيو
ترجمة: ضي رحمي

تبدو البلاد كما لو صُنِعت في صدفة ما.

بلا خطة واضحة، وعلى عجل.

ولمحبة مجهولة، أو اختبار ما، منحتها السماء نهرًا من الجنة. أسمته النيل.

يجري هاربًا من أعالي الجنوب، هابطًا إلى قاع الشمال.

عـلى جانبيه جاءت الخضرة، ثم الصحراء. غزاة، ومحتلون، وفاتحون، ومنهزمـون، ورحالـة، وتجـار، وجيـوش دخلـت ولم يعـرف أحد أين ذهبت.

مرَّ وقت طويل.

تغير السكان. تغيرت حياتهم. والنيل ما تغير.

حمل نهر الجنة مراكب الخشب، وبوارج الغزاة، وجثث الغرقى، وضحايا المذابح. غاص فيه المتزوجون، والأطفال بعد الختان، والنسوة المنجبات بعد النفاس.

فاض نهر الجنة كثيرًا؛ فقتل.

أجدب نهر الجنة كثيرًا، فأهلك.

وكما كان، يعود في كل مرة. نهر وديع قادم من الجنة.

ماذا يفعل هنا؟

لا شيء. إنه يسري متسكعًا جوار قرية حجر نارتي، التي لا يذكرها أحد.

يحتضنها حبيبةً غائبة. يشد قبضته عليها هاربةً لن يفلتها.

تنحدر حجر نارتي من الصحراء القاحلة شرقها، فيحتجزها بحر النيل غربًا ليمنعها من الهرب.

يحنو عليها، لكنه قاسٍ.

ويقسو عليها، لكنه حنون.

فهو من الجنة.

وما يأتي من السماء، له سبب. لكننا أقل شأنًا من إدراك حكمته.

الحكمة هناك. لا نعرفها، لكن نصدقها.

كالنور للأعمى. لم يره. لا يدركه. لكنه يؤمن به.

كل ما نعرفه، أن هناك نيلًا. وأنه من الجنة أتى. وأنه اليوم يجري في أيام الصيف من شهر مايو.

يقترب اليوم من حجر نارتي يحمل على صفحته بقايا من بقعة جازولين باخرة ما. خشب أكله الماء. قشر ثمرات برتقال، رماها مراهقون في مخبأ على مسير النهر. شجيرات فقدت انتصابها فهوت إليه. حشائش تماسكت ثم غلبها تياره فمرَّ بها على البلاد. جثة حمار منتفخة. ما يبدو كأوراق كراسة كرهها تلميذ فأطعمها النهر.

وعبد الرازق يمشي متمهلًا على قيفة النيل، لا همَّ له. يعقد كفيه خلفه. يتمتم بأغنية للنعام آدم: "يا ناسينا ليه تنسانا/ قلبي الشلتو عندك أمانة/ يا ناسينا ليه تنسانا". يتبع ببصره جدول المشروع الزراعي. إن صادف تعثرًا انحنى وعالجه بكتلة طين. عبد الرازق أسمر في بلد كل أهلها سمر. فيه قصر، مدكوك الجسم كأنه مصارع قديم. رفع بصره إلى النيل. لحظ الأشلاء الحمراء. وقف مدققًا. لم يتعجل. إنه قماش. ما في ذلك شك. قماش أحمر. لعله أبيض مزركش بكثير من الأحمر. أو لعله أحمر به بقع بيضاء!

نزل على القيفة خطوةً ليقترب من الماء. انحنى كأنه يتبع أثرًا في مجرى النيل. وعندما أصابت موجةٌ الكتلةَ التي يراقبها؛ ما عاد لديه شك.

صرخ عبد الرازق: "يا ناس!.. يا ناس هوووووي".

على مقربة كانت جماعة تتنادم عند فايِت نِدّو.

لـ فايت ندو عريش من القش عند المرسى. تبيع فيه الشاي والقهوة، وربما بعض الطعام إذا تأخرت المعدية.

اليوم كان لديها حاج بشير، وشقيقة الأصغر الرشيد، وسليمان الحواتي، وأحمد شقرب المساعد الطبي الجديد.

لما كان عبد الرازق يصرخ، كان حاج بشير يشكو تأخر المعدية؛ فلديه التزامات كثيرة. شرع يعدد ما ينتظره، لكن شقرب قاطعه ليبلغ الجمع ما سمعه قبل دقائق في راديو العيادة. انقلاب عسكري.

خبط حاج بشير بكفه المفتوحة الأرض، فأثار التراب الناعم. سعل عدة مرات. قال بنفاد صبر: "عسكر تاني؟".

حاج بشير كان مربوعًا في زمن ما، متين البنيان كقالب من طوب اللبن المحروق. لكنه منذ شهور يهزل كضرع بقرة يمصها عجلها فيحسن الرضاعة. بعينه حول خفيف. له عثنون صغير يخالطه الشيب. جاوز

الخمسين بعام أو عامين. لم يعمل في حياته، ولا يومًا واحدًا، لكنه يبرر هزاله المستمر منذ شهور بأنها "الهموم والمشاغل لا تتركان لصاحبهما بالًا نيحمل اللحم". كان حفيد العمدة، ثم ابن عمدة، ثم شقيق شيخ الخط. فما أحوجته المكانة التي رفعته إليها الدنيا لعمل. لكنه دومًا مشغول بقضاء حوائج ما. كما هو مشغول اليوم بقضاء حوائج الزواج. وإن لم يكن هناك ما يشغله في حجر نارتي أو ما جاورها فهو دائمًا مطلوب للشهادة في محكمة مدينة دنقلا، أو مكتب الزراعة بمدينة القولد، أو ذاهب للتوسط عند قاضي المواريث في مدينة مروي. لذلك كان رأيه يُؤخَذ بكثير من التقدير.

قال مستكملًا انزعاجه:

"البلد دي خلاص راحت. تصدق يا بني آدم؟".

كان شقرب، الموظف الحكومي الوحيد، حذرًا؛ فقال: "لعلَّ المرة هذه تختلف عن الأولى".

فايت ندو ذكَّرته بأنه لم تمر ستُّ سنوات عندما كان أطفال حجر نارتي يهتفون مقلدين متظاهري المدن في هتافهم ضد العسكر "إلى الثكنات يا حشرات".

قالت: "حتى بنات المدارس. ما يعرفن شيء، ولا عندهن شغلة. لكن يهتفن ويجرين".

لكن سليمان الحواتي أكد بحسم: "يا زول! السودان ده فيهو شيطان ساكن".

وعندما حاول الرشيد ذو الواحد وثلاثين عامًا أن يتدخل في حديث العجائز؛ فجعهم صراخ عبد الرازق.

"يا ناس! جنازة بحر يا ناس! وين المروءة يا ناس.. جنازة بحر يا ناس".

من العريش خرجوا، ومن بين أشجار النخيل، ومن فوقها قفزوا، ومن جداول سدَّها القش فدخلوها ليفتحوها خرجوا مسرعين. كأنما الأرض أنبتتهم. لونهم لونها، وثيابهم، التي توصف بالبياض تجاوزًا، في لون الطير الأغبش. عشرات تجمعوا يتنادون "جنازة بحر.. جنازة بحر".

دون تفكير، وثب كثيرون في مركب سليمان الحواتي اليتيمة المقيدة إلى القيف.

اهتزت المركب واحتجت، ومالت بجانبها فأسقطت عددًا. لم تكن المركب إلا برميلًا من حديد قُطِع الى نصفين طوليين. وبقليلٍ من عمل الحدادة تحول نصفٌ ما إلى مركب.

وقف حاج بشير آمرًا، وكان صوته قويًا لا يمكن أن يُعصى.

"سليمان، والرشيد وشقرب وعبد الرازق.. بني آدم تاني يخطي المركب ما في".

احتج بعض الحضور بصوت خافت، لكن الرشيد سارع لتبرير قرار أخيه: "سليمان يعرف قاربه، وعبد الرازق أحدُّنا بصرًا ورأى الجنازة فهو أقدر على تتبعها، وشقرب مساعد طبي يستطيع تقديم العون".

أحاطت به نظرات متسائلة؛ فأكمل في حرج: "أنا سأحاول الإمساك بالجنازة، لكن إن كان هناك من هو أقدر فلا بأس".

تراجع المعترضون على مضض؛ ففي النهاية *"الكلمة الطيبة تنزع شارب الأسد"*، كما يقولون في تلك البلاد.

تحرك القارب بحمولته. رويدًا يبتعد. تعانده موجة؛ فيعاندها سليمان. كأنه ولد من بحر النيل كخيل دنقلا الأسطورية. لا ينازعه الماء إلا غلبه. القوم على الشاطئ يصيحون. يشجعون. يوجهون. لمح عبد الرازق الجنازة. يحيط بها قش وفروع يابسة لا بد أنها صحبتها في رحلتها النيلية الطويلة. كانت الجنازة على وجهها؛ فقال سليمان بثقة: "امرأة".

شقرب، الذي كان حديث عهد بكل هذه الحياة، لم يفهم. فمال عليه عبد الرازق وشرح له.

- جثة الرجل تطفو على ظهرها ويكون وجهها إلى أعلى. لكن جثة

المرأة، لأن طبعها الحياء، تطفو ووجها إلى أسفل.

"سبحان الله". قال الرشيد، وأكد ذلك سليمان.

- لقد رأيت مئات الغرقى. دائمًا المرأة وجهها إلى أسفل. ربك يستر الحريم حتى في الموت.

تقترب المركب فتبدو الجنازة أوضح.

تطفو على وجهها. كقالب عجين منتفخ. رأس أصلع إلا من آحاد شعيرات. لون أبيض شمعي. وعروقها زرقاء كأنما حُقِنت بصبغة النيلة. بقع من الدم تبدو تحت الجلد الشمعي.

لكن أحمد شقرب المساعد الطبي الجديد بعيادة حجر نارتي كان يعاني الآن من شيء آخر.

كلما اقتربت المركب من الجنازة داهمتهم الرائحة. ليست رائحةً نفاذة. إنها رائحة ثقيلة. لها حضور.

هل تشمها؟

رائحة الموت. اكتسبها منذ أول قتيل تعفَّن فوق الأرض، قبل أن يعلمنا الغراب التعفُّن تحت الأرض. رائحة الموتى الذين حصدهم في كل مكان. ليست حنوطًا، ليست رائحة موت الكفن. إنها رائحة الموت البكر الخام. الموت بلا استعداد ولا أحباب ولا بكاء. الموت، كأنما هو الموت فقط.

كانت رائحةً ثقيلة لها مذاق في الفم.

هل تذوقتها؟

أحسها حراقةً في عينيه.

هل أدمعتك؟

كأنما الموت ذاته مات وتُرِكَ ليتعفن تحت الشمس لألف ألف عام.

وبينما كان الرشيد يمرر حلقةً من قماش ليشدَّ بها يد الجنازة، كان **أحمد شقرب** قد ابتلع رائحة الموت حتى ما عاد بداخله مكان لحياة.

دون أن يشعر. بلا أي تنبيه مسبق. مال **شقرب** على جانب القارب وأفرغ معدته.

وصاح سليمان الحواتي:

"يا مجنون! على الجنازة يا مجنون؟".

* * *

لم تكن حالة الجنازة تسمح بإخراجها من البحر.

قال سليمان الحواتي:

- ستتمزق لو انتشلناها.

ربطوها جوار المركب إلى القيف. تعاونوا على الصعود. جمعهم عريش **فايت ندو**.

أحمد شقرب جرى ناحية ماكينة ري المشروع. غطس رأسه أسفل الماء المندفع. الرائحة تطارده. تخنقه. تسكن كل زاوية في كيانه.

من الناحية الأخرى سمعوا هدير المعدية. إنه الظهر، وقت نقلها للركاب.

وقف حاج بشير يعطي التعليمات. سعل للحظات. أرسل جماعةً من الحضور إلى مسجد القرية ليعلنوا الخبر هناك. أمر جماعةً آخرين أن يتجهوا إلى قرية قريش بابا جنوبهم ليخبروهم بوجود غريقة. فإن لم تكن منهم فيذهب جماعة من قريش بابا جنوبًا لإبلاغ القرى التي قبلهم. استعجل ذهابهم صائحًا:

- يللا! اتحرك يا بني آدم أنت وهو.

تفرقت المجموعات سريعًا. سأل الحاج بشير سليمان الحواتي:

- كم يومًا تتحمل الجنازة؟.

- يومان على الأكثر.

- خلاص (حسب على أصابعه) اليوم الأحد، الإثنين، يوم الثلاثاء بعد صلاة الظهر إن ما ظهر أهلها ندفنها.

تناثر التأييد في المكان الضيق.

بماءٍ قليل في عريش فايت ندو توضأ حاج بشير. تذمرت المرأة، لكنه

تجاهلها. والدتها، وعائلتها قبلها، كانوا ملكًا لأسرة حاج بشير. إلغاء الرق لا يجعلها حرة. هي فقط لم تعد أمةً رسمية.

استنفد حاج بشير ماء العريش القليل، ثم نصح من كانوا معه بالوضوء. قال لهم:

- من حمل جنازةً فليتوضأ، ومن غسَّلها فليغتسل، هذا هو الشرع.

ضحك عبد الرازق غفير الجدول.

- جدول المشروع هنا وبحر النيل هناك، وتتوضًا من ماء فايت ندو المسيكينة؟.

قامت فايت ندو بجسدها العضلي الفارع ونادت بنتها:

- يا عبير.. تعالي لتملأي الماء. خالك بشير لم يبقِ لنا منه شيئًا.

ثم استدارت إلى عبد الرازق "لا أحد ينصفني هنا غيرك".

دخلت عبير ابنة فايت ندو العريش فمسَّ المكان شذى، كرائحة ورق الجوافة تحت المطر.

الصبية النحيلة. سوداء كسحرٍ سفلي. تلمع ساقاها الصبيتان كأنها القمر يطل على بحر النيل. صدرها ليمونتان لم تنضجا، لا يكاد تستره ثياب طفولتها.

لما انحنت تصب الماء تمتم الحاج بشير: "ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله". ابتسم سليمان الحواتي وسحب نفسًا عميقًا يطمع أن يبتلع به

الصبية. لمعت أعين الحضور كأنهم يعترفون أنها تمشي الآن داخل أوردتهم. وقفز الرشيد خارجًا، ينظر إلى أحمد شقرب يحاول غسل رائحة الموت عن نفسه حتى كاد يسلخ جلده.

خرجت عبير من العريش فأوشك الرشيد أن يُصاب بالعمى. ليست الفتاة حسناء، لكنها شهية كالعافية للسقيم. استوقفها للاشيء. قال لها:

- هل تزعجك رائحة الجنازة؟.

هزت كتفيها ومطت شفتها في لامبالاة. انفلتت لتمر لكنه أمسك معصمها.

- كبرتِ يا عبير.

نظرت إليه بعينين ميتتين.

كأنها ثمرة جوافة ثقبها الطير. رائحتها فواحة مغوية. شعرها مبعثر مغبر كما يليق بطفلة.

دهمه صوت المعدية وغمغمة شقيقه بشير خلفه. ترك معصمها فطارت كأنها قُمري. وكزه حاج بشير في ظهره وقال له:

- المعدية وصلت. يللا نلحق أشغالنا. المولد بعد كم يوم والزواج معه،والمطلوبات كتيرة. بطِّل لكاعة.

لم يتلكأ. شقيقه يعامله كطفل رغم أنه رجل في الثلاثين، لكنه يوده مودة الإبن لأبيه؛ فهو لم يعرف أبًا إلا شقيقيه.

نزل خلفه إلى المعدية مارًا بجنب جماعات الغجر المغادرة.

حاج بشير يشاكس الغجر:

- عدتم مرةً أخرى؟ لن نرتاح منكم يا بني آدمين؟

ردَّ أحدهم بصوت غليظ ولهجة ممطوطة:

- طبعكم الكرم يا حاج بشير. إحنا ضيوف الله.

ضحك ريِّس المعدية وشتم.

- أنتم لا تعرفون الله.

ردت امرأة غجرية بالصوت الغليظ ذاته واللهجة الممطوطة نفسها:

- الله يسامحك.

مرَّ الرشيد جوارهم خارجين من المعدية وهو يدخلها، لكنه لم يكد يشعر بهم. فقد دخلت معه عبير بنت فايت ندو. دخلت وهي تنهش رغباته.

* * *

لم يغتسـل أحمد شقرب في حياته كما فعل يومها. ودَّ لو يُدخل أصابعه حتى رئتيه ليقتلع الرائحة.

بعد أكثر من سـاعة أحسَّ بالعبث. بدأ ماء الماكينة يقل إيذانًا بتوقفه. المعدية ذهبت وعادت مرتـين. أفرغت حمولتها وحملت آخرين. جاء من القرية عشرات يشـاهدون الجنازة في مكانها أسـفل القيف. مقيدة بثوب قـماش، يرفعها موج، ويخفضها موج. تبادل المتفرجون التكهنات من أي القرى تكون. من قريش بابا، أو كلّرو، أو سروة، أو الكونج.

قال قائل إن فتاةً هربت من قريش بابا قبل أسـابيع. لكن الجنازة تبدو حديثة. قال سليمان الحواتي بثقة: "هذه جنازة ثلاثة أيام. حين يغرق غريق تخرج سلاسـل من أنفه تشـدُّه للقاع ثلاثة أيام ثم تنفصل. هذه الجنازة لم تغرق قبل أكثر من هذه الأيام الثلاثة".

لبس أحمد شـقرب ثيابه المبتلة، ومشى مبتعدًا. ناداه أحد العائدين أن يقفز خلفه على الحمار. لكنه كان دائخًا جدًا. اعتذر.

- سأذهب راجلًا. أختصر الطريق من أرض محمد سعيد الشيخ، ومنها عبر الجدول إلى البيت.

- يا زول! الحمار أريح لك.

- لا أقدر على ذلك. معدتي تؤلمني. إن ركبت؛ فأنا دائخ لا محالة.

سمع ضحكات تستهجن رقته. مرَّ به موكب راكبي الحمير وانحرف هو يسارًا ليدخل أرض شيخ الخط محمد سعيد.

كان دونًا عن كل أهل القرية الصغيرة يلبس بنطلونا من القماش الأبيض، وقميصًا بنصف كمٍّ من اللون ذاته. زيه الرسـمي كمساعد طبي مسؤول عـن عيادة القرية. وهي حجرة صغيرة تقف في الطريق قرب بيت شـيخ الخط، بأرفف فارغة إلا من بعض المسكنات، وسماعة طبية، وحقنة وحيدة يغليها كلما احتاج إليها.

نحيـف، طويل القامة، لظهره انحناء خفيف كأنما يهم بالنظر للأرض إذا مشى.

مشى خطوات حتى وارته أشجار النخيل. توقف أسفل إحداها. انحنى على نفسه. تكرَّع عاليًا. تطارده الرائحة. سال لعابه دون أن تُخرج أمعاؤه شيئًا. تمخَّط بقوة. دلك يده بالتراب. ثم قعد. المكان هادئ جدًا. صمتٌ

إلا مـن طير يثرثر بعيدًا، نهيق حمار في مكان ما، ونسـيم يهمس بين جريد النخل. خلوة ليس فيها إلا الظل.

أرض شـيخ الخط محمد سـعيد هي الأكبر في القرية، تليها في المساحة أرض شـقيقيه الحاج بشير والرشيد، ثم أرض أولاد البدري الذين تزوج منهم الحاج بشـير. ورغم كل ما حدث وما تم، إلا إن مشـكلته معهم في الميراث ما زالت قائمة. ربما لو حُلَّت المشـكلة منذ سنوات لأصبح حاج بشير صاحب أكبر أرض في القرية. لكن من يدري ما يحدث غدًا.

تنبه أحمد شقرب على خشخشة من يتحرك غير بعيد. تأهب للنهوض. توقع ظهور محمد سعيد الشـيخ بحماره الذكر الأبيض الضخم وملفحته وعصاه. بدلًا من العجوز صاحب السـطوة، ظهرت عبير تجمع في طرف ثوبها ثمرات من الدوم النيء.

وقفت هناك، على مسافة منه. لا تتكلم.

هل يتذكر أحمد شقرب أنه سمع صوتها قط؟

رآها أول مرة قبل عام ونصف في أيامه الأولى بالقرية. كانت ترقص في حفل ختان ابن الحاج بشير. خالها بشير كما تقتضي أعراف الرق الجديدة.

كانت ترقص كعود بانٍ يتمايل مع الريح. كلما مالت بجسدها النحيل

الخالي من أي تضاريس أو بروزات هاجت الجموع، وأطلق الصبيان أصوات الصفـير. كان بها شيءٌ كأنه ليلة القدر. تحسُّـه ولا تـراه. تعلمه ولا تملكه يداك. هو هنا، لكن ما هو؟

الآن كانت تقف أمامه صامتة. وديعةً كعصفور بين راحتي طفل.

لم تمُر.

ما كانت تسرق حتى تشعر أنها فُضِحت. ما كلَّمها فتبرر مالها بقيت.

وقفت فقط.

بعين مسـاعد طبي مدرب نظر إليها متفحصًا وراهن نفسـه بالشهور التي درسـها كتومرجي على أن عمرها لا يتجاوز ثلاثة عشر عامًا. لكنها ممتلئة بأنوثة ثلاث عشرة امرأة.

أشار إليها، فاقتربت. مشت نحوه دون كلمة. لما تبقت بينهما خطوات أفلتت طرف ثوبها الذي جمعت فيه الدوم النيء، فتناثر حولهما في كل مكان.

لم تهتم. مشت نحوه في صمت، حتى غابت فيه

* * *

تسلل أحمد شقرب وقد فرغ، يمشي بين النخيل والرضا.

غسلته عبير من رائحة الموت، وضمخته بالحياة.

لما قارب الجدول الرئيسي تلقاه غبار القادمين. أتوا كما الغيم قبل المطر

يأتي. صامتون على حميرهم، يبعثرون التراب الناعم كدخانٍ قَلِق.

رماه أحدهم بالسلام. عرف فيهم بعض وجوه قرية قريش بابا.

كانوا تسعة، بجلابيبهم البيض، تربض فوقهم العمائم والهم. وصلهم خبر جنازة البحر فأتوا يستوثقون. مروا بالجزء الجاف من الجدول الرئيسي حتى بلغوا بعضه الطيني المبلل بباقي ماء الماكينة. انحرفوا إلى درب ضيق بين النخيل. كلما مروا بجماعة من المزارعين رموا إليهم سلامًا باهتًا؛ فيتوقف المزارعـون ويردُّون بحماس، ثم يُعقِّبـون مبشرين "خير يا جماعة. خير إن شاء الله". طمأنينة لا يقين فيها. لكنه العرف.

حملهم قلقهم وحملوه، حتى وصلوا عريش فايت ندو.

الوقت عصر، والدنيا مُصفرَّة فاقعة. قفزوا عن ظهور حميرهم. ربطوها على عجل، وتلقاهم المجتمعون قيامًا.

سلام وعناق، ثم يُعقِّبون مبشرين "خير يا جماعة. خير إن شاء الله".

أمسك أحدهم بساعد عبد الرازق ونزلا معًا عن القيف. شيخ أسمر بدين. تبعهما ثالث. تبادل المنتظرون أكياس التمباك الغارقة بالعطرون.

- خُذ. هذا تمباك الفاشر.

- كيسي جديد. اشتريته اليوم.

يفتح أحدهم الكيس الصغير. يشمُّه بعمق. ثم يكوِّر منه قليلًا ويدفنه خلف شفته.

- كيف الجماعة؟ طيبين؟

- بخير الحمد لله.

- سمعتوا عن الانقلاب؟

- الحال كله مقلوب.

- صيف ولا جهنم هذه السنة.

يراوغون الصمـت. تخرج عليهم فايت ندو بالماء والقهوة. يجلسـون أسفل شجرة قريبة. "ادخلوا الظل يا جماعة". يشكرونها ويتناولون القهوة. أحدهم يطلب شايًا.

- العساكر هذه المرة سيحكمون إلى القيامة.

- لو وفروا الجازولين؛ حلال عليهم.

- كيف الفول عندكم هذه السنة؟

يصدرون أصواتًا مجهلة. ربما يقصدون "الحمد لله"، أو "لا بأس".

- لو توفر الجازولين كل شيء سيكون بخير.

ثم ظهرت عمامة من أسفل القيف. برهة ثم برز عبد الرازق يشد صاحب العمامة، أعانه بعُسرٍ على الصعود. هبُّوا واقفين. تطايرت كلمة "خير!" من كل الأفواه. صفق الشيخ البدين كفيه نافضًا التراب. تبعهما الثالث الذي نزل.

- ليست هي.

هشَّت فايت ندو "الحمد لله".

ما سـأل أحد عـن فتاتهم الغائبة متى غابت وكيف. ربما نكأ السـؤال جرح شرفٍ أو أوهم بفضولٍ غير محمود.

أحد القادمين التسعة سأل مستوثقًا:

- تأكدتم؟

- جدًا. ليست هي.

جنازة البحر ليست لفتاةٍ من قريش بابا. قُضي الأمر. ستأتي وفود بقية القرى للمعاينة.

تجمَّعوا مرةً أخرى أسفل الشجرة. هرولت فايت ندو إلى عريشها وهي تنادي عبير. لا تظهر الفتاة فينكسر خاطر كثيرين.

- كيف الجماعة؟ طيبين؟

- بخير الحمد لله. كيفكم انتو؟

- الحال ماشي.

يرشـفون القهوة على مهـل. ينـادي أحدهم على فايت ندو: "سـكر يا مرة. قهوتك حنضل".

ترد من داخل عريشها: "قهوتي بلا عيب. حنضل اللسان".

يضحكون. يغمغم أحدهـم: "القهوة التي ضيعت العمودية". يزداد الضحك.

الشيخ الأسـمر البدين يتزحزح في مكانه. يبرز لينتزع قيادة المجلس. يحكي للا أحد.

"قصة القهوة التي ضيعت العمودية عجيبة".

كلهم يعرفها. يبتسمون، لكنهم لا يعترضون.

"قالوا في أيام الإنجليـز. كان مأمور المنطقة يمر بالباخرة على القرى، ويقابل العُمَد في المرسى. يسمع منهم المشاكل ويحلُّها".

علّق عبد الرازق:

- أيام جاكسون باشا. كانت البلد بخير والله أيام الإنجليز.

لا يعبأ به الشيخ. يواصل.

"قالوا العمدة في طريقه للمرسـى قابل جماعة يشربون القهوة. عزموا عليه. اعتذر حتى يلحق المأمور. لكنه شمَّ رائحة البن. الراجل ما تحمَّل. نزل عن حمارته وقال كوباية قهوة ما مشكلة".

زاد الضحك العالم بما سيأتي. فايت ندو تأتي بالسكر ومزيد من القهوة والشاي.

"كوباية في كوباية. والقهوة سمحة. باخرة المأمور الإنجليزي وصلت وما وجد العمدة، فغضب. الإنجليز ناس شغل. ما عندهم لعب وتسيُّب. أصدر قرارًا بعزل العمدة وتعيين أحد الحاضرين مكانه".

انفجروا ضحكًا.

- راحت العمودية.

- مشى مع القهوة، خليها تنفعه.

يحفظون الحكاية جيدًا. يعرفون كل الحكايات. لكنها تمتعهم كل مرة.

- ده عمدة سروة الله يرحمه، العمدة برير.

- لا يا زول. ده كان عمدة أمبكول.

- يـا جماعـة القصة دي مـا هنا. قالـوا حصلت في ديـار الجعليين في شندي.

- لا والله، سمعت إنها حصلت في تنقسي.

يسـحب الشـيخ البدين قيادة المجلس مرة أخرى "عليم الله بمكانها. لكن قالوا حصلت".

يتوهون في الحكايات. يحكون قصصًا ليس فيها جديد. يضحكون. يضيف بعضهم على بعض، ويأنسون.

لما قاربت الشمس الذهاب هبُّوا واقفين.

- ادونا خاطركم.

دعاهـم بعضهم إلى الذهاب معهم للبيوت. اعتذروا. تجاذبوا الدعوة والاعتذار حتى فتروا.

- يوم الجمعة معانا إن شاء الله في زواج عبد الحفيظ؟

- إن شاء الله.

- ضروري. الحنة بكرة. والعقد الجمعة في المسجد.

- حاضرين إذا ربنا هوّن.

- بلغوا الجماعة.

- حساب القهوة والشاي.

يجيبهم القسم الرافض من أكثر من فم. بعضهم يقسم بالطلاق. لا يمكن.

يقفزون على حميرهم. يهشُّـونها على طريـق العودة. يرحلون كما الغيم بعد المطر يرحل.

تتنهد الشمس شفقها الأخير، وتهم بالغوص في الغياب. رائحة البرسيم الرطب تغزو الدنيا.

- لازم زول يبيت هنا، يحرس الجنازة.

يتداولون الاختيار، وفايت ندو تجمع أشياءها وتطفئ نارها. حاسبها أحدهم عمّا شرب الضيوف. نادت على عبير مرةً أخيرة بصوت عالٍ. لكن الفتاة ما جبرت خاطر المشتهين.

يقول سليمان الحواتي:

- حاج بشـير والرشـيد لم يعودا بعد. سأنتظرهما بمركبي. ويمكن أن أتمَّ الليلة.

يعده أحدهم أن يأتيه عند صلاة الفجر.

- خلاص. انتظر إلى الفجر، وتأتي مكاني.

تحمل فايت ندو حاجياتها، ويرفع أهل الغنم منهم برسيمهم على ظهور الحمـير. يمتطون الطريق راجلين وراكبين نحو القرية. تاركين لـ سـليمان الحواتي بقايا أصواتهم وضجيج انصرافهم.

يقصد جدول المشروع. بقعة مـن الماء بقيت بعد توقف ماكينة الري. يتوضأ منها. يخلع نعليه ويواجـه الشرق. يرفع يديه مكبرًا وآذان المغرب يأتيه من عتمة القرية البعيدة.

كان في الركعـة الثانية عندما أحـسَّ اقتراب أحدهم. بطرف عينه لمح الثوب الأنثوي. لم يفكر مرتين. لقد حضرت أم الصبية.

* * *

ثمانية وعشرون عامًا.

منذ سنة 1941 كما تقول الدفاتر الرسمية. ومنذ سنة زواج الحاج بشير من سكينة بنت البدري كما يحكي التأريخ الشفوي للقرية.

كل قرى الخط تعرف فاطمة أم الصبية.

ثمانية وعشرون عامًا.

لم تغِب فيهن مرةً واحدة.

يصلها الخبر إذ يصلها. كفَّ الناس عن سؤال كيف. تأتي ملتفة بثوبها. تناظر الجثة الغارقة. تعاينها لعلها سعاد.

ثمانية وعشرون عامًا.

لم تكُن أية جنازة بحرٍ هي جنازة سعاد. لكن فاطمة لم تكُف. تجئ كل مرة. تبقى في مكان الجنازة لأسابيع، وأحيانًا لأشهر. تنتظر.

يقولـون إن بحر النيل إذا لفظ غريقًا أتبعـه اثنين من الغرقى القدامى الذين تمسَّك بهم سابقًا.

تأتي فاطمة وتنتظر. أحيانًا يُصدِّق بحر النيل ما يُقال، ويلفظ جثامين غارقة قديمة، نسيها أهلها ونسيها الموج في جوفه. وفاطمة تفحص ما يُفرج عنه النيل فلا تجد سعاد.

ثمانية وعشرون عامًا.

مات ناس، ووُلِد ناس. زُرِع نخيل وطرح. ذهب الفيضان ببسـاتين، وغرس الناس غيرها. لكن فاطمة لا تيأس.

ثمانية وعشرون عامًا.

وفاطمة تـأتي كما جاءت هذه المرة. تمر جوار سـليمان الحواتي كأنها لا تراه. صامتة، كأن دموعها خاطت شـفاهها عـن النطق. يلمحها بطرف عينه تقف على القيف. تنظر لطريقها إلى الأسفل.

ثم بحذرٍ تنزل نحو مربط الجنازة. فلعلها تكون سعاد.

* * *

تدخل فايت ندو منزلـها مع الظـلام. تضع حملهـا وتمشي بثباتٍ إلى فانوسها العتيق.

لا ترى شيئًا لكنها تعرف مكان كل شيء. تمسك الفانوس. تهزُّه لتتأكد. مليء بالجاز الأبيض. تمد يدها فتضعها على علبة الكبريت. يشتعل العود فينفجر الضوء الأحمر في الظلام. ترفع زجاجة الفانوس وتمسُّ شريطه بالعود المشتعل. يملأ الضوء الغرفة اليتيمة. وعلى السرير الوحيد في طرف الغرفة ترى عبير، تجلس محتبية وقد ضمَّت ركبتيها إلى صدرها وأسندت ذقنها عليهما.

لا تفعل شيئًا. هي فقط هناك.

- ألن تكفِّي عن أفعال الشياطين هذه يا بنت؟

لا تجيب عبير. الصمت غالبـاً هو ردُّهـا على كل ما يُوجَّه إليها من كلام. الصمت هو ثرثرتها المفضلة.

أشارت فايت ندو إلى أشيائها التي عادت بها. أمرت الصبية:

- اغسلي الأكواب، ورتبي العدَّة.

انزلقت مـن السرير. نثرت الأكـواب والصينيـة والكفتيرة. أبعدت العلب التي تحوي الشـاي والقهوة والسكر. شدَّت طشتًا وجركنًا مملوءًا ماءً وجلست.

تتأملها فايت ندو.

ثروتها التي خرجت بها من الدنيا.

فايت ندو لم تزل في منتصف الأربعينيات من عمرها، لكنها تعرف أن حياتها انتهت قبل أن تبدأ. حلمت لـ عبير بحياة مختلفة.

منذ اللحظة الأولى التي عرفت فيها أنها حامل تمنَّت على الله والأقطاب والأولياء والشيوخ وكل قادرٍ أن يهبها بنتًا.

وقد كان.

لم يكُن لـ عبير أبٌ رسمي. لكن فايت ندو تعرف، والقريـة جلُّها يعرف.

كانت ليلةً صيفية كهذه. ضوء القمر يغطي حجر نارتي. الضيوف في ديوان منزل شيخ الخط محمد سعيد يصخبون. كان قاضي المديرية ضيفًا

على البلد؛ فبذل محمد سعيد الشيخ الذبائح، وأرسل من يشترون الخمور المستوردة. فقُدِّم الشيري إلى جوار خمر العرقي البلدي. ضاق الديوان بالفوانيس والخمور واللحوم ووجهاء المنطقة، من حجر نارتي وما جاورها من قرى إلى نهاية الخط.

جرى غالب الحديث عن السياسة. كانت سنة الاستقلال. غادر الاحتلال وأصبحت البلاد لأهلها. أكد قاضي المديرية مقدرة الزعيم إسماعيل الأزهري على القيادة والإدارة بأفضل ممَّا كان يفعل الإنجليز. واتفق الحضور على أنَّ توافق السيِّدين علي الميرغني حفيد النبي صلى الله عليه وسلم وعبد الرحمن المهدي ابن الإمام المهدي عليه السلام سيوفر الاستقرار اللازم. لكن محمد سعيد الشيخ، مدفوعًا بنزق ما شرب، ومتحمسًا بولائه الديني، هتف: "لا يهم في هذه البلد إلا السيد علي والأزهري". وأكد أن موقف السيد الميرغني أهم من غيره. أصاب بعض الحضور حرج. فتمتم بعضهم عن أهمية السيد عبد الرحمن المهدي، أبي الوطنية. كاد المجلس أن يتكدر، لولا أن حرَّض بعض العقلاء أحد الجلوس على الغناء. من لا مكانٍ أتى الطنبور. أمسكه المؤدي. نغَّمه قليلًا، ثم شرع يغني.

صمتت السياسة. وأطرقت الشمالة رأسها تسمع.

في صمت القرية سمعت البيوت الأغنية. الساهرون في بيوتهم خرجوا

إلى الخيشان. فايت ندو في مكانها مع النساء بمطبخ بيت شيخ الخط أتاها النغم كأنه السحر.

وبين ضجيج الخدمة وطلاوة الغناء، دخل عبد الحفيظ.

إحدى عشرة امرأة يجهزن الطعام والشراب في تناغم عسكري تقوده حاجة الرضية سيدة البيت وسيدة القرية. دخل عبد الحفيظ فرفعت بعضهن ثيابهن يغطين رؤوسهن، وتغامزت أخريات.

ظنت النساء أنه جاء يطلب مزيدًا من الأكل للضيوف. لكنه وقف يتكلم عن أشياء غير مترابطة في ارتباك. أشار إلى فايت ندو خفيةً وخرج.

تمهلت قليلًا قبل أن تقف. فارعة. جسدها مفتول العضلات. شعرها خشن قصير. ملامحها تحمل عذوبة فاتنة، كأنما خُلِقت من نبيذ صافٍ. طلبت الإذن من زوج الشيخ الرضية.

- إلى أين؟

تلعثمت. قالت شيئًا عن إحضار مزيد من الحطب. لكنَّ ضحكاتٍ خبيثة من عدد من النسوة أسكتتها. قالت إحداهن للرضية:

- دعيها تذهب.

نظرت الرضية إليها في ريبة، وإلى النسوة المتغامزات الضاحكات. ثم قالت:

- لا.

أوشك تزمت الرضية أن يعصف. المرأة التي تكره الخدم والإماء و" قلة الأدب". لكن سكينة بنت البدري تصدَّت لسلفتها:

- دعيها تذهب يا حاجة.

وقفت فايت ندو عند باب المطبخ تنتظر الإجابة. حتى النار أسفل الأواني مدت لهبها تنتظر. وكتمت النسوة أنفاسهن.

لا امرأة في القرية تجرؤ على التعقيب على ما تقوله حاجة الرضية. زوج شيخ الخط وبنت عمه. عمها العمدة، وجدها العمدة. امرأة ورثت الوجاهة قبل أن يتزوج والداها. ولها طبع عاصف حاد لا يسلم منه حتى محمد سعيد الشيخ.

لكن محبة الرضية لسلفتها مرَّرت العاصفة.

قالت زوج شيخ الخط في مودة:

- ومن مثلك يا سكينة؟ لو كل النساء أنتِ، وكل الرجال بشير، لطابت الحياة.

ابتسامة الرضا على شفتي سكينة كانت إشارة الفرار لـ فايت ندو. فانطلقت لا تلوي قبل أن تحبسها العجوز.

وخلفها تبادلت النسوة طيب المديح في سيرة بشير وسكينة، وسكتن عن شتم عبد الحفيظ إكراما لأخته.

* * *

كانت ليلة صيفية كهذه الليلة. يسمع فيها أهل القرية صخب ضيوف ديوان محمد سعيد الشيخ، وصوت المغني يناجي محبوبته التي سافرت بالباخرة.

وخلف المطبخ يقف عبد الحفيظ ود البدري ينتظر.

شدَّ يده على ساعد فايت ندو وجرَّها خلفه. همست له:

- لا يمكن أن أتأخر.

تفوح منه رائحة الخمر. دائخ لا يكاد يمشي معتدلًا. أجابها:

- ما مشكلة. ما مشكلة.

أسند ظهرها إلى حائط. رفع ثوبها. لمس فخدها العاري بأصابعه الخشنة. تراه على ضوء القمر.

تلك الليلة وهبتها عبير.

ثروتها التي خرجت بها من الدنيا.

* * *

تسأل فايت ندو بنتها إن كانت سمعت شيئًا عن الفتاة الغريقة.

تهزُّ عبير رأسها أن لا.

تقول فايت ندو:

- قلبي على أمها. لقد جاء جماعة من قريش بابا. لكنها لم تكُن بنتهم. هل كنتِ تعرفين بنتهم التي هربت؟

تهزُّ عبير رأسها أن نعم.

تستحثها أمها على الكلام. يخرج صوتها طفلًا. يحبو، كأنه يسأل ولا يجيب.

"كانت معي في المدرسة. اسمها بثينة. كان أبوها يضربها. وإخوانها يضربونها. والمعلمون يضربونها".

يفور فؤاد الأم، فتصيح فايت ندو:

- الله يضرب قلوبهم.

- كانت كثيرة النوم. تنام في كل مكان. وتنام أثناء الدرس. كانت بليدة. لكنها كانت تنتظر أن تتزوج ابن عمها فينقذها من المدرسة.

- لم تكُن شاطرة مثلك.

تجيب عبير بالصمت.

- قادر ربي يا عبير أشوفك دكتورة.

تنظر عبير إلى أمها. يحيطها القهر في الغرفة المتعمة. تقول فايت ندو:

- لا يعلم الغيب إلا الله. وحاجة الرضية كما تغضب فإنها سريعة الرضا. تأخر سنة عن المدرسة لا شيء.

تهزُّ عبير كتفيها في لامبالاة.

تتمتم فايت ندو:

- لو كانت سكينة بنت البدري حية.

- أنا لا أذكرها.

تتنهد فايت ندو.

- كانت أجمل امرأة تراها العين. وكانت أطيب من مشى على الأرض.

تعرف عبير أن سكينة بنت البدري هي من سمَّتها. كانت تتخيل أنه لولا سكينة لظلت كيانًا مجهولًا بلا اسم. لكنها لم ترها. لم تسمع إلا سيرتها الطيبة التي تأتي متفرقة، وبشيء من الحذر حتى لا تنبش أحزان حاج بشير ولا تزعج نور الشام.

تتذكر بشيء من العسر، كأنه حلم، الشيخ بشير يصرخ. ربط وسطه بعمامته وهو يتمرَّغ في الأرض. كانت القرية تنوح. حتى الحيطان سمعتها تبكي. وهي طفلة صغيرة تجري فتختبئ في حجر أمها الباكية.

لا تذكر سكينة بنت البدري. لكنها تذكر الدموع، وتعرف الوجع.

* * *

"من لم يرَ سكينة بنت البدري، لم يرَ جمالًا."

طالما ردَّد الناس هذه العبارة.

في طفولتها، لقبوها بـ"الما شاء الله" لكثرة ما يقولها من يراها.

كانت سكينة صغرى بنات حاج الحسين البدري. لكنها كانت بنت البدر. مكتملةً حُسنًا. وفائقةً لطفًا. تمشي فيُزغرد الرمل تحت قدميها الطفلتين. تصفق فيطرب النيل. تضحك فيرقص النخيل.

كانت أول طفلة ترفض أمها أن تحفر على خديها شلوخًا؛ فكان وجهها ناعمًا كثمرة مانجو.

لم يعرف بحر النيل ولا الصحراء على جنبتيه طفلة مثلها. كانت مدللة حجر نارتي كلها. يُقال إنها أول طفلة تلبس صندلًا من الجلد. أرسله خالها

من العاصمة. جاءت زفة من النساء ليرين الهدية. وحين وضعت الطفلة قدميها الحلوتين داخله، كانتا كقدمي حمامة تناسب أثرها على التراب.
"ما شاء الله". هتف كل من حضر.

مشت سكينة بالصندل شهورًا. وكان الناس إذا مدحوا قالوا: "هذا الشيء كأنه صندل بنت البدري".

كلما مر يوم عليها كانت تزداد حسنًا. تصحو صباحًا فكأنما تبدل جمال يومها الماضي بحلاوة لم ترَها عين بعد.

ثم زارها ما يزور البنات. كانت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها. حينها ما كان ليتأخر عنها الراغبون.

كانت أول من خطبتها عمة لها، طلبتها لأحد أولادها، ثم تكاثر الآتون. ولأنَّ شاعرًا مر بالقرية يومًا، قيل إنه رآها، وقيل إنما سمع عنها، كتب عن حسنها أغنية تقول: *"نار قلبي واقداها السكينة"* ؛ فقد بلغ خبر حسنها بما قال بلادًا في أقصى دنقلا شمالًا، حتى حدود بلاد الرباطاب جنوبًا.

وحين اختار محجوب السائق الوحيد بالمنطقة أن يكتب بيت الشعر ذاك على ظهر الباص السفري، بلغ خبر حُسن بنت البدري أم درمان. ومع عودة إحدى رحلات الباص من أم درمان، جاءت أهزوجة لم يعرف أحد من كتبها تقول: *"يلا يا المحجوب قوم سوق/ فارق أم درمان عجّل بالمروق/ نشوف السمحة ست الذوق/ سكينة الفهيا الشعر ما بحوق"*.

يومها جاء عمها غاضبًا كرياح الهبوب. وجهه مسود غيظًا. ينفخ أنفه كأنه يطرد من جوفه الشياطين.

بحث عن شقيقه عند أرضه الزراعية، سأل المزارعين فأجابوه متوجِّسين. كان الشر في ملامح الرجل مخيفًا. دلُّوه؛ فذهب غاضبًا كما جاء. دخل على شقيقه بلا سلام.

- يا حاج ما عاد للسكات سبيل.

والدهـا حسـين البدري كان رجـلًا هينًا، صبـورًا. قال لأخيـه ملينًا القول:

- وعليكم السلام. هل أفطرت؟

- ما ترك كلام الناس لي شهية أكل.

قال له ملاطفًا:

- الناس لا تترك الكلام، والحمد لله على سيرة الخير.

- كلام الناس ضرر، إن قالوا خيرًا فعَين، وإن قالوا شرًا ففضيحة.

كانا في ديوان منزل الحاج حسين البدري. غرفة مستطيلة من الطين، على أرضها بروش من القشِّ جلس عليها الشقيقان متقاربَين، تدخل عليهما الشمس من أربع نوافذ والباب المفتوح وشقوق في السقف، تقع على ملامحهما المتشابهة لولا غضب واحد وهدوء الآخر.

- فما ذنب سكينة؟

- وما ذنبنا أن يتحاكى بنا الناس؟

- فكيف العمل؟

- نزوجها.

وجم الحاج حسين. سكينة لم تكمل الخامسة عشرة، وقد ردَّ خطبة شقيقته، وضابط إداري، وعمدة سروة، وابن أخي عمدة سروة، وجماعات من أهل حجر نارتي يذكر بعضهم وينسى بعضهم، تجار ومزارعين وأفندية من أبناء القرية في العاصمة، أقارب وأغراب، عجائز ورجال في عز فتوتهم.

كلما هشَّ له شخص في مجلس ظنه طالب خطبة، وكلما قابل عبوسًا شك أنه خاطب ردَّه ونسيه.

- البنت ما جهزت لهذا.

انتفض العم ملدوغًا.

- بناتنا يتزوجن دون عمرها هذا بسنوات. شقيقاتها تزوجن دون عمرها هذا بسنوات. بناتي تزوجن دون عمرها هذا بسنوات.

- ليس كل البنات سواءً يا ابن أم.

- كل البنات سواء، وكل ألسنة الناس شر. فإن كانت نيتك أن تفضحنا فقُل.

- الله لا جاب فضيحة.

- فلا تراوغ.

- سامحك الله! إنما أنا متهمل.

- فإن جئتك بما يقتضي العجل؟

شعر الحاج حسين بالفخ الذي يسير إليه. ما جاء شقيقه معاتبًا إنما جاء خاطبًا. لكن لَمن؟ فأولاده كلهم تزوجوا. أيريدها زوجة ثانية لأحدهم؟

احتمى بالصمت حتى لا يغضب ابن أمه، لكن الرجل ما أمهله.

- ما قولك؟

- يصير خير إن شاء الله.

* * *

تقبلها أمها وتضمها بقوة.

تشم رائحتها كأنها وليدة لم تزل. تغسل شعرها بالزيت، وتجدله بالدهن. تقول لها مدللةً: "سكينة، برد حشاي الحنينة".

تبتسم سكينة ويلفُّها الخفر.

"بنت الرجال، والرجال قبايل. بنت الرجال، ما فيهم راجل مايل".

تطرب سكينة لذكر أهلها. ليسوا عمد القرية، لكنهم كثرة لا تُضاهى.

في مرة حرجة كادت العمودية تأتيهم طائعةً من بيت النايرإلى بيت البدري. مات العمدة سعيد الناير وليس له خليفة صالح. أكبر أولاده محمد في العاصمة يدرس في كلية غردون التذكارية، ينتظره مستقبل أفندي كبير. ولداه البشير والرشيد أكبرهما شاب قارب العشرين لكن القوم استضعفوه، وأصغرهما حمل في بطن أمه. تداولت حجر نارتي أمرها وكادت تدفع بالعمودية إلى بيت البدري، لو لا تلغراف أُرسِل على عجل إلى محمد سعيد الناير، فجاء قبل دفن والده يطلب إرثه. لم ينسَها بيت الناير قط، لكن مودة الجيرة غطَّت ما كمن في النفوس.

تقول أمها:

- ذكر أبوك الزواج.

تبتسم وتغمض عينَيها.

- لو كان الأمر لي ما زوجتك للحاكم انعام، فمَن ذا يكافئ بنت حشاي.

تعرف سكينة من يكافئها، لكنها لا تبوح. تتعلق بالأمنيات وتدعو.

- عمُّك جاء بعريس مقبول، لكن أبوك لا يقضي أمرك دون رأيك.

هل تُستجاب دعواتها؟

قلبها الصبي يرفرف في صدرها. هل فعلها حقًا كما وعدها؟

- ابن قبايل، رجل جيِّد، ومركز حسن.

ما بال الوصف يصيب ما تتمنى ويطيش؟

ابن قبايل هو، شاب جيد. فما المركز الحسن؟

تنظر إلى أمها قلقة.

فليكن هو. فليكن هو. فليكن هو. فليكن هو. فليكن هو..

ثم تنطق أمها، ويموت كل ما كانت تأمل.

* * *

لما وُلِدت سكينة بنت البدري كان البشير بن العمدة ناشئًا دون الرابعة من العمر.

سمع الزغاريد فهبَّ مع الصبيان يستطلع الأمر. جماعات من الأطفال في أقمصة قصيرة مترَّبة. حفاة، شقَّق لعب الماء والرمال أقدامهم وكساها خشونة. تدافعوا بفضولهم وسط النسوة ودخلوا بيت الولادة. هشَّتهم النسوة كالدجاج. لكن البشير، برأسٍ محلوق لمعالجة القمل، تسرَّب بين الأقدام حتى وصل فراش الوليدة.

كانت الغرفة تفوح برائحة الدخن والمحلب والصندل لتقاوم رائحة ماء الولادة لكن الصبي ما أزعجته الرائحة، ولا شم العطور. نظر إلى الوليدة المتغضنة، مغمضةً عينَيها، قابضة كفَّيها، لونها أرجواني. ضحك الصبي؛ فسألته إحدى النسوة: "عجبتك يا البشير؟".

مدَّ عنقه ينظر أكثر، ثم قال: "حلوة زي حلاوة القرطاس".

ظلت سكينة في عينَي بشير حلوة كحلاوة القرطاس، ما تغير رأيه كلما كبرت. حين خرجت للعب مع الصبيان والبنات كان يهديها عمود سكر سرقه من مخزن بيتهم، أو زجاجة فارغة من عطر بنت السودان، عليها صورة لفتاة إفريقية عارية النهدين، ترتدي مئزرًا أحمر.

فلما طالت قامتها وانضمت إلى سرب الفتيات اللائي يجمعن الحطب عند العصر لمطابخ البيوت، كان يسبقهن ويجمع ما قدر عليه ويضعه في الطريق ويختبئ. لكن سكينة لم تحمله ولا مرة، فقد كانت رفيقاتها الأكبر سنًا يستحوذن عليه وهُن يمدحن حظهن أن عثرن على رزم من الحطب الجاهز. ويتركن سكينة ومن مثلها في العمر يجتهدن في جمع الجديد.

سكينة كانت تعلم أن ذلك الحطب لها.

كانت تعرف من ترك ذلك الحطب لها.

وكان البشير يعرف أنها تعرف، لكنه ما قال، وهي ما أظهرت.

ويوم وجدت الحطب عند باب بيتهم قبل الخروج، عرفت أن ذلك كان وعد البشير لها. كيف لا، وقد ترك في بطن حزمة الحطب زجاجة ممتلئة من عطر بنت السودان.

لقد طار بينهما القمري، وحدَّث النسيم كل منهما عن الآخر، وعرف الاثنان مستقبلهما.

لولا أن جاء بابكر ساتي.

* * *

قبل الفجر بساعة انتبه سليمان الحواتي على صوت النداء.

كان وسنًا. يغفو فتسقط رأسه، ثم يفيق فزعًا. لا شيء إلا همس الموج لبعضه، وأصوات الليل المكتومة التي تثرثر بما يجهل البشر. لم يكن يخاف الجثة المربوطة على بعد أقدام منه. سليمان رأى الكثير فما عادت تفزعه جثث الموتى ولا قصصهم.

قبل ساعات جاءت فاطمة أم الصبية، عاينت الجثة فلم تظفر ببنتها سعاد. صعدت وجلست على تبة بعيدة تراقب الظلام صامتة. علّمت السنوات سليمان الحواتي ألا يحادثها، فهي لا تجيب. لكنه ملأ وعاءً بالماء وضعه جوارها وانسحب إلى مسافة وجلس ينتظر.

آنس نفسه بتلاوة شيء من القرآن، ثم أنشد بعض المديح النبوي، ثم غنّى أشياء لعبد الرحمن بلاص والنعام آدم. كان صوته أجش نشازًا لكنه

أطرب نفسه. ليس للمرء وليف كذاته، ولا مطرب كصوته. ثم ناوشه النوم.

كلما غفل رأى بحر النيل يفيض حتى يبلل قدميه فيصحو فزعًا. يدرك أنه حلم. فيركن إلى السكون مرةً أخرى ويغزوه النعاس.

ظل يحاور النوم حتى انتبه للنداء. يأتيه من الضفة الأخرى. هبَّ واقفًا ونظر؛ فرأى ضوء المصباح الذي يحمله حاج بشير يضيء وينطفئ، ينطفئ ويضيء.

صاح ليعلمه أنه آتٍ. ثم انزلق إلى مركبه وشقَّ الظلام. يحرك مجدافه في بحر لا يراه. يسمع صوت مجدافه ينغرس في قلب الموج، ثم يشده فيسمع الخرير يسيل من صفحته ليعود إلى مائه.

يشق الظلام نحو ضوء كان هناك ثم انطفأ. لا يرى شيئًا، لكنه يعرف أن تحته بحر النيل وفي انتظاره صاحبيه. ما كان ليكون أشد عمىً لو كان كفيفًا. وما كان ليكون أشد يقينًا لو كان يبصر إلى أين يسير. يتبع حدسه، وخبرته، حتى وصل.

أرسى مركبه على الضفة الأخرى، فتلقاه حاج البشير بسعاله.

- ساعة يا بني آدم؟

نزل الشقيقان على ضوء المصباح ممسكان بحبل الحذر. استقرًا في المركب. دفعه سليمان وقفز داخله بقدمين حافيتين وسروال مشمر. جدف مستديرًا،

بينما كان حاج البشير يبصق في النيل. قال الرشيد:

- يحتاج صدرك العلاج يا حاج.

- مـن أين لي الوقـت؟ حوائج الناس لا تتـرك لي وقتًـا لراحةٍ يا بني آدم.

يعرف الرشـيد أن شقيقه يشغل نفسه بنفسه. هو متطوع دائمًا للزعامة ومشـغوليات النـاس. كأنـه ينتقم من حرمانـه منصب أبيـه قبل ثلاثين عامًا.

القرية التي لم ترَ البشير الشاب مناسبًا للعمودية لم تعد تستغني عنه. فهو يكاد يكون العمدة الفعلي، بينما ينشغل شقيقه الأكبر منه بعام ونصف أو نحو عامين بمشاغل الأفندية. قبل ستة أشهر، في ديسمبر 68، ترك محمد سعيد الشيخ كل مشاغل القرية وسافر إلى العاصمة لحضور حفل غنائي لأم كلثوم المصرية. قيل إنه لبس هناك البدلة الإفرنجية وسهر مع رفاقه القدامى من كلية غردون. كلهم صار أفنديًا، بينما قطع هو دراسته في السنة الأخيرة وعاد ليصبح عمدة قريته، ثم لاحقًا شيخًا للخط الإداري كله. أما الحاج بشير فلا يغيب عن القرية، ولا أهلها، ولا مشكلاتهم. فإن سافر فذلك لقضاء حاجة في مروي بالمحكمة أو القوللد لمكتب الزراعة. إن كان زواج في القرية فهو من يقوم عليه. فإن مات ميت فهو رأس القوم. وإن أحوجت المواريث الناس لحكم فهو المتصدر لذلك. رغم فشله في الحصول على ميراث زوجه الراحلة من بيت البدري.

- استشر أحمد شقرب على الأقل. ليس ضروريًا أن تسافر إلى مستشفى دنقلا.

- مجنون أنت يا بني آدم؟ وهل يحسن شقرب إلا علاج الحريم وأوجاع البطن؟ ما عند شقرب إلا حقنة واحدة وحبوب السلفا والكافلجين.

نطقها "كافي الجن".

قال سليمان:

- عليك بالسمن والزيت.

هشَّ الحاج بشير:

- هذا هو. سأجعل نور الشام تدهن صدري بالزيت، وأواظب على شرب السمن.

غلبه السعال وهو ينهي جملته. اهتز جسده بشدة، وحاول كتم ما يعاني بكُم جلبابه. لم يرَ البقعة التي أحدثها. حجبها الظلام. احتضنه الرشيد بقوة.

- والله يا حاج، لقد تعبت لـ عبد الحفيظ أكثر مما تعب هو لزواجه.

- الود لا يبلى يا أخي. الود لا يبلى.

رقَّ صوته كأنه يوشك أن يذكرها، لكنه تماسك سريعًا. قال:

- ثم إنه خال زوجتي، وجد ابني. فكيف لا أتعب له؟

ما نطق اسمها، لكنهما سمعاه في أنفاسه المتلاحقة. ما رأيا وجهه في الظلام، لكنهما علما أن عيناه تدمعان.

بصوت متهز، قال سليمان الحواتي:

- رحمها الله. كانت والله ملاكًا. ما عرفنا مثلها، ولن نعرف.

صمت الرجال الثلاثة، وقد غشيتهم ذكرى الراحلة المحبوبة.

* * *

"من *لم يرَ* سكينة بنت *البدري*، *لم يرَ جمالا*"

* * *

دهمتهم نسمة حارة، مع اقتراب المركب من القيف.

قال الحاج بشير هاربًا من ذكرياته:

- الصيف هذا العام كأنه من جهنم.

لم يجبه أحد. قفز سليمان عن مركبه وجذبها إلى الشط. مدَّ يده يعين الحاج بشير. نزل في عسر وهو يذكر الله. سعل مرتين. قفز الرشيد خلفه.

سألا سليمان وهو يقف في الماء والطين:

- هل ترجع معنا؟

- سأحرس الجنازة حتى الفجر. ثم يأتي غيري.

- في ميزان حسناتك يا سليمان.

- الله لا يقطع المروءة يا حاج بشير.

رفض أخذ ثمن الرحلة منهما. تركاه وصعدا إلى مربط ركوبتيهما. لمح الرشيد فاطمة أم الصبية. كتلة سوداء مبهمة في ذلك الظلام. لكنه ميزها. تجلس على تبتها تراقب بحر النيل، وتئن بـ سعاد.

لما قفز على حماره سأل شقيقه:

- ألم تفقد أم الصبية الأمل بعد كل هذه السنوات؟

- قلب الأم يا رشيد. يُقال إن زوجها هجرها منذ سنوات وتزوج وأنجب. والمسكينة لا تطلب في حياتها غير سعاد.

- لكن! بعد كل هذه السنوات! ما معنى ما تفعله؟

- إنه الحب يا بني آدم.

التفت الرشيد إلى أخيه. رأى ملامحه واضحةً هذه المرة. كانت مضيئةً بالذكريات.

* * *

افترقا قرب منزليهما. اتجه الرشيد جنوبًا إلى بيته الخالي. يسكنه وحده بلا زوج. ويستضيف جلسات رفاقه للخمر واللعب. بينما يقصد بيتي شقيقيه للطعام.

سار حاج بشير في الظلام مهتديًا بمعرفة حماره للطريق، حتى دخل زريبته.

نزل عنه وهمَّ بربطه، فسمع النداء من داخل البيت. "الحاج؟".

هتف مجيبًا، فانفتح الباب. خرجت نور الشام زوجه تحمل فانوسًا يصارع الظلام، وخلفها إحدى فتيات العرب التي تخدمها.

نور الشام متوسطة الطول، نحيفة، في منتصف الثلاثينيات من عمرها، تمشط شعرها في جدائل رفيعة. ليس لها من خالتها إلا عيناها.

- ساهرت بك.

كان حنونًا كعهده. قليل هم الرجال مثله في حجر نارتي، أو في الخط كله.

لعله الحب الذي رقق قلبه قديمًا جعله لينًا مع النساء.

أزعجه أن تسهر زوجه حتى الفجر تنتظر عودته. همَّ بالاعتذار. لكنها عاجلته:

- أدرك الشيخ محمد. أرسل يطلبك أكثر من مرة.

- ماذا حدث؟

- لا أعرف! لكن مراسيله ما انقطعت ساعة. شدَّد أن تذهب إليه متى عدت.

- الوقت فجر!

- مرساله الأخير أكد أن تجيبه ولو جئت في ساعة القيامة.

- يا ساتر يا رب!

ترك حاج بشير حماره دون ربط. رفع جلبابه وهرول. نادته نور الشام:

- الفانوس يا حاج.

لكنه لم يتوقف، ولا حتى أضاء المصباح الذي يحمل. كان يعدو ويسعل. صدره يكاد يتمزق. لكنه لا يتوقف. انحدر من تل رمال، وانحرف يسارًا بين البيوت. لم يكن يفكر. لم يقبل قلبه التفكير في ما يحدث. فليكُن أيَّ شيء غير أن يكون نزل بأخيه سوء.

منذ أحد عشر عامًا جرى في ذات الطريق، لكن من الناحية الأخرى. جرى من بيت شقيقه **محمد سعيد الشيخ** صوب بيته ليدركها. كان يومها يسابق الحمى والخبر السيئ. لكنه تأخر. للمرة الثانية يتأخر. ولم يكن لهذه المرة ما بعدها كالمرة الأولى.

والآن يجري إلى بيت شقيقه.

يتردد داخله الهتاف "لا تفعلها يا محمد. لا تفعلها يا ابن أمي".

كان جزعًا. كان يخشى أن يُصاب فيمَن يحب. ما كان يظن إلا أن شرًا قد وقع. لذا لما أوشك على دخول منزل محمد سعيد الشيخ المختنق بالظلام، أجفل لما أتاه صوت أخيه يناديه. توقف يسعل بقوة. اتكأ على حائط البيت. سعل وبصق. أحس جسده يتهاوى. لكن شقيقه أدركه. أمسك به.

ساعده أن يصل معه إلى حيث كان يجلس أسفل شجرة اللبخ، أمام البيت.

ارتمى الحاج بشير على سرير الخشب وهو يلهث. بصق مرات. أحس فمه يمتلئ بطعم صدئ. مسح عليه بكُم جلبابه.

ناوله محمد سعيد الشيخ؛ فشرب. كان يضع يده على رأسه ويواسيه.

- لا بأس عليك يا أخي. لا بأس عليك.

مرَّ وقت حتى سكن ما بالحاج بشير. هدأ سعاله وإن بقي صدره يتمزق مع كل نفس.

- يا بشير لا بد لك من طبيب.

أشـار بيـده معترضًـا دون أن يقـدر عـلى النطق. فـما أفلت شـقيقه الفرصة.

- كم مضى وأنت تسعل هكذا؟ وجسدك نحل حتى لا تكاد ملامحك تبين.

هزَّ الحاج بشير رأسه.

- أنت عنيد. وتتحجج بالمشاغل. راعِ صحتك يا بشير. لا تكن طفلًا.

وجد الحاج بشير صوته أخيرًا فقال مشاغبًا شقيقه:

- أنت لا تترك إيمانك بطبٍّ الاسبتالية كأنك ما زلت طالبًا بكلية غردون.

- وأنت متمسك بكراهية الاسبتالية كأننا لسنا في 1969. لسنا في الأربعينيات يا أخي. هناك طب وأطباء وعلم اليوم.

- علاجي في السمن ودهن الزيت فلا تقلق.

- أنت عنيد كجدتك العافية.

- وأنت دعوتني فجرًا فقتلتني قلقًا. ماذا هناك؟

تجهم وجه محمد سعيد الشيخ. لم يره حاج بشير في الظلام. لكنه أدركه لما خرج صوته.

- جاءت تلغرافات من الخرطوم. أوامر من العسكر.

دهش الحاج بشير! ماهم وللعسكر؟

- ماذا يريدون؟

- برقيات تأييد.

- أخذوا السلطة بالقوة ويطلبون التأييد؟

- بعض الناس لم ينتظر طلبهم. الراديو يذيع برقيات التأييد منذ المغرب. مدن وقرى وأعيان وجمعيات. هل سمعت عن قرية صليليحة بالجزيرة؟

أجابه بالنفي.

- بعثت صليليحة بأربع برقيات تأييد، أُذيعت أكثر من مرة.

- مالنا بهذا يا محمد؟ نحن ختمية، وولاؤنا للسادة المراغنة والحزب الاتحادي!

- نحن عُمد يا بشير، قبل أن نكون ختمية.

- وولاؤنا؟

- ما قيمة الولاء إذا فقدنا السلطة؟

مدَّ حاج بشير يده في الظلام يتحسس حتى عثر على الجردل الصغير. ملأ كوبًا وشربه دفعة واحدة.

قال محتجًا:

- كيف نفقدها؟ نحن عمد حجر نارتي منذ زمن التركية. بيت الناير أقدم من كل سلطة في الخرطوم!

- إنهم عسكر يا بشير.

- عسكر في الخرطوم. نحن بيت الناير في حجر نارتي. كنا شيوخًا وعمدًا وحكامًا قبل الإنجليز والأزهري وعبود بعسكره والثورة بأحزابها.

- لقد اعتقلوا الأزهري يا بشير. واعتقلوا كل قادة الأحزاب.

خفق قلب حاج بشير. الأزهري نفسه؟ زعيم البلاد؟ المحرر الذي رفع علم الاستقلال! *سيدي الأزهري إسماعيل، لابس بدلة الدمور*. لقد اعتقله العسكر بعد انقلابهم في 58، وسقطوا وبقي الأزهري. ألا يتعلمون؟ سمَّى ابنه الأزهري على المحرر، فلماذا كلما جاء العسكر سجنوا المحرر؟ لماذا يصوبون بنادقهم نحو الزعيم بدلًا من الأعداء؟ لقلبه خصومة مع العسكر منذ زمان بابكر ساتي. لكن بابكر كان يحارب الطليان. لم يحارب الأزهري!

- لا تظن الأمر كانقلابهم السابق؟

- لا يا بشير. يقال هذه المرة إنهم الشيوعيون!

- الشيوعيون؟

- ومعهم بابكر عوض الله، القاضي. عينوه رئيسًا للوزراء.

- من هو؟

- من أبناء القطينة. كان معي بكلية غردون، لكنه درس القانون.

- هل جُنَّ البني آدمين؟

- حتى مصر رحبت بالانقلاب.

- عبد الناصر؟ لقد كان هنا قريبًا! لقد صالح الملك فيصل هنا في بيت المحجوب!

غمغم محمد سعيد الشيخ:

- وأم كلثوم كانت هنا. عمومًا لم أسمع اسم المحجوب في المعتقلين. لكن كل اسم في ذهنك هو في السجن الآن. فلا تحدثني عن أننا سيادة. إن لم نعلن الولاء للسلطة الجديدة بسرعة فربما ذهبت منا السيادة إلى أصهارك.

يعلم محمد سعيد الشيخ نقطة ضعف شقيقه. هو دومًا محتاج إلى تأكيد عدم انحيازه إلى بيت البدري. في كل موقف يواجه فيه بيت النابر بيت البدري تتجه أنظار أبناء العمومة والأقارب إلى حاج بشير تنتظر انحيازه. وفي كل موقف يواجه فيه بيت النابر بيت البدري يُضطَر حاج بشير لموقف متطرف ضد أصهاره حتى لا يُتهَم بمحاباتهم.

كانت سكينة تقول له:

- أنا تهمتك عند أهلك.

وبعدها تهمته نور الشام.

- ماذا ترى يا بشير.

- ما كنت لأخالفك يا أخي.

تنهد محمد سعيد الشيخ في ارتياح.

- لله الأمر. سنرسل باكرًا برقيات التأييد. واحدة عني شيخ خط حجر نارتي وما تبعها من قرى. وواحدة عنك ممثلًا لمواطني حجر نارتي. وواحدة عن نور الشام زوجك ممثلةً للاتحاد النسائي.

- هل يكفينا ذلك شر العسكر؟

- لا شيء يكفي شر العسكر يا بشير. لا شيء يكفي شر العسكر. لكنه مبلغ حيلتنا.

* * *

وُلِدت فايت ندو في وقت ما نحو عام 1924.

ليست هناك ورقة رسمية تثبت ذلك. ذكريات المقربين مشوشة لا تجزم بشيء. لكن كل ظنونهم تدور حول ذلك العام الذي شهد تمرد العساكر السودانيين، ثم خروج الجيش المصري من البلاد.

كانت أحداث جسام وقعت في العاصمة، لكنها فقدت الكثير من دقتها وترتيبها لما وصلت حجر نارتي، رغم تفاعل الأهالي معها.

يقول بعضهم إنها وُلِدت بعد الواقعة، ويؤكد آخرون أنها كانت رضيعة لما أتاهم خبر التمرد، واختلط على كثيرين الأمر بين زمن توقيع جماعات من بيت البدري على مذكرة رُفِعت في الخرطوم تطالب بوصاية بريطانيا على البلاد، وتأييد بيت الناير لمظاهرات هتفت "تحيا مصر"، شارك فيها بعض أبنائهم الطلاب في كلية غردون. كان ذلك العام ممتلئًا

بالأحداث، فخالط المهم منها الأهم، ونسي الناس متى أنجبت عز القوم خادم العمدة سعيد الناير ابنتها فايت ندو.

وُلِدت فايت ندو في حجرة من طين نيئ، ما زالت موجودة في بيت العمدة القديم. حين دهم فيضان العام 1946 حجر نارتي ذاب بيت العمدة في بحر النيل الغاضب، إلا جانبًا من ديوان الضيوف، وحجرة عز القوم.

شهدت تلك الحجرة رجالًا يدخلون في جنح الليل. سمر، وأنين، وتوسلات لا تُستجاب، ونخر ذكور في عزٍّ انفلات شهواتهم، وولادات كثيرة، أعقبها موت المواليد، ما نجى من أكثر من عشرين ولادة إلا ثلاث، أصغرهم فايت ندو.

جُلِبت عز القوم رضيعة مع أمها من أقصى جنوب البلاد، اشترتها العافية، الجدة الأسطورية لآل البدري، وأهدتها لابنها الناير في زواجه. نشأت عز القوم ولا تعرف بلادًا غير حجر نارتي. تتحدث العربية بلكنة الشمال، بينما ظلَّت أمها المجلوبة تتعلم العربية بلكنة أعجمية حتى ماتت على أعتاب المئة. كانت، -حين موتها خرفة- آخر من صحب العافية، وأكثر من حكى عنها، فاختلطت حكاياتها عنها بالمحبة والكراهية والخرف واللغة العرجاء.

أما عز القوم فأدركت الإلغاء الرسمي للرق. قوانين الإنجليز التي كسرت ظهر المجتمع المحلي. ظلَّت تدعو الله على مسمع أسيادها: "الإنجليز يباركوهم الشيوخ السادة، والعرب ينقصوا ما يلقوا الزيادة".

يسمع أسيادها الدعاء فيضحكون. لم يجرؤ أحد على زجرها، إلا حاجة الرضية في آخر عمرها، لكن الأمة العجوز ما كانت تعبأ بغضب بنت الأكابر. كان الرجال يتشفَّعون لها؛ فتصمت عنها حاجة الرضية وفي جوفها مزيد من غيظ.

المرة الأولى التي جرَّبت فيها فايت ندو الرجال كانت مع عبد الرازق.

كانت صبية، وكان صبيًا.

دخل إلى حجرة أمها عز القوم سكرانًا. صبي يضع قدمًا في عالم الرجال، وقدمًا في ملاعب الطفولة. شرب مع رفاقه الخمر البلدية حتى ظنَّ نفسه ملك الإنجليز. عربدت في صبوته الشياطين فهاج جوعه للنساء. أغرته الخمر أن يجرب خادم العمدة، فصِيتُها في الفراش تحاكى به الكبار زمانًا. دخل الصبي يطلب عز القوم وهي على عتبات الستين من العمر.

أنفقت كل سنواتها رقيقًا في بيت العمدة، تخدم في المطبخ، وتصنع العرقي، وتُشبع الرجال.

ولدت عشرين بطنًا أو يزيد، من ألف رجل أو يزيد. لا تعرف مَن

أنجبت مِن مَن. لا تحصي ولا تهتم. تطيع، وتدعو للإنجليز، وتدعو على العرب، ويموت أطفالها. مات بعضهم ولهم أسماء، ومات بعضهم بلا أسماء. ما نجى من الموت إلا وزين الدهب، التي اشتهرت باسم دهب اختصارًا، وعبد التام، وفايت ندو.

نجوا من الموت، وما نجوا من الحياة.

تزوجت دهب عبدًا من رقيق أعيان مدينة الدبة، وفرَّ عبد التام مكللًا بالعار إلى الخرطوم وحصل على ورقة حرية حكومية. وقيل إنه حصل بها على وظيفة في مشروع الجزيرة الزراعي بوسط السودان. لم تفهم أمه عز القوم لِم هرب ابنها من العمل في زراعة العمدة ليعمل في زراعة الإنجليز بعيدًا عنها! فالزراعة هي الزراعة، والإنجليز قوم خير، وكذلك آل الناير. فلِم يختار بُعدها؟ لم تسامحه على هجرها حتى ماتت.

أما فايت ندو، أصغر المواليد وآخر الناجين فبقيت تحت قدمَي أمها. تلعب وتخدم وتتعلم الولاء لبيت العمدة والطاعة للرجال، فقط ما عاد العمدة سعيد النايز يُدعى سيدها، إنها خالها.

وفي حجرة أمها في بيت خالها، دخل عليهما عبد الرازق هائجًا بالخمر. داهم أمها فزجرته العجوز بلين، لكنه شدَّها بقوةٍ وأمسك يدها عنوة ليضعها على عضوه.

صاحت عز القوم تدعوه إلى الكف:

- يا ولدي قول باسم الله.

لكنه كان مخمورًا حتى النخاع. رفع قميصه واستل عضوه وقال بلسان ثقيل:

- باسم الله.

ضحكت العجوز. قبضت على عضوه ودلكته بلُطف. قالت:

- يا ولدي! لو أمسك بك العمدة سعيد لقطعه، وخالتك عجوز ما عادت تصلح للشيء.

رمى نفسه عليها حتى سقطا أرضًا. ما كان يعي كلمة مما تقول، وفايت ندو منكمشة على نفسها تكاد تغوص في التراب الذي تنام عليه. أغمضت عينيها حتى لا ترى الصبي الذي يماثلها عمرًا يحاول أن يلج أمها، والعجوز تحايله ملاطفة ألَّا يفعل.

كان مرتبكًا بجدة التجربة، يتلاعب به السُّكر فيهُبُّ إذا نام ذكره، ويدوخ إذا انتصب. لم تُعِنه العجوز على نفسها، فألفى نفسه تائهًا لا يعرف أين يلج. شتم وبصق. قام دائخًا وتراجع عن العجوز بظهره. اختل توازنه فسقط جوار فايت ندو التي تحفر في الأرض هربًا. تبكي بلا صوت، تبكي بلا دموع، وجوارها وقع عبد الرازق على ظهره.

هل قصدها أم هو السُّكر صورها له ذات العجوز التي كان يجاهدها؟ مدَّ يده فلمس ساق فايت ندو.

تحسَّس جلدها الصبي المشدود. مشى بيده عليها. ارتعشت الصبية. تكوَّرت على نفسها وضمَّت قبضتيها في خوف.

نادت عز القوم في انكسار:

- عبد الرازق! استهدى بالله لا تفضحنا.

لعل الصبي ظنَّ الصوت يأتي من الجسد الذي يمشي عليه بأنامله. غمغم بكلامٍ مبتور. دفع جسده فوق الصبية. مدَّها؛ فما وجدت قوة تدفعه بها عنها. تعثرت كفُّه في ثيابها حتى عرتها. تجشأ خمرًا، ثم دفع عضوه في طريقه. وفي الجسد الصبي الناعم لم يتُه. عرف سبيله فولج. صرخت فايت ندو كأنها تنشطر نصفين.

وفي الركن الآخر من الظلام، تمتمت عز القوم بلا صوت:

- العرب ينقصوا ما يلقوا الزيادة. العرب ينقصوا ما يلقوا الزيادة.

* * *

تسبق فايت ندو الفجر كل يوم.

ما جاء فجر عليها وهي نائمة قط. تتحرك في عتمة السحر، تجهز أدواتها، تُبخِّر أكوابها، تخلط القرنفل والحبهان والزنجبيل. تقلي البن، ثم تدقه في هونٍ خشبي حتى يصبح ناعمًا.

وعلى دقات الهون تستيقظ عبير.

تنهض كنهرٍ خريفي عكِر، متغضنة الجبين، متورمة عيناها، محاطة بصديد لزج. تهرش شعرها. تسند ظهرها إلى الحائط.

تناديها فايت ندو منتقدة:

- نوم الوارثين يا عبير.

لا تتجاوب.

تجري أمها بين حاجيات صباحها.

- اليوم أول ليلة لحنة عبد الحفيظ.

عبد الحفيظ، أبوها كما تسمع في نميمة القرية السرية. شهادة ميلادها مكتوبة باسم محمد سعيد الشيخ، فهي مولودة في بيته ومن نسل رقيق أسرته، لكن مَن في القرية لا يعرف أنها ابنة عبد الحفيظ ابن الحسين البدري. عمتها سكينة بنت البدري، أجمل من وطئت تراب حجر نارتي.

تقول أمها:

- ستذهبين إلى بيت العرس قبل الإفطار، تخدمين معهم وتقضين طلباتهم.

تهز عبير رأسها.

- خالتك دهب قد تأتي اليوم أو ربما غدًا. إن وصلت قبل حضوري؛ أرسلي إليَّ في العريش.

تتلقى عبير التعليمات صامتة. ستُنفِّذها، لكنها ليست مجبرة على الكلام.

حاجة الرضية أكثر من يكره صمتها هذا. كانت تلقبها بـ"البومة"، بينما يجده الرجال والصِّبية فاتنًا. هي نحيفة صموت كمعزةٍ بكماء، لكنها مثيرة معطاءة كقبيلةٍ من البغايا، لا ترفض أحدًا؛ فلقَّبها الصِّبية بـ"الكلبة".

أما أمها فتدلِّلها في ساعات الرضا بـ"الدكتورة". الحلم الذي تصدَّت له حاجة الرضية، لكنه لا يزال حيًا ينبض.

تخرج فايت ندو إلى فناء البيت. تتفقد أوعية العرقي. أغلقتها منذ خمسة أيام. تتأكد من إحكام الأغطية. يتخمَّر تمر الجاو داخل الأواني، والليلة ستبدأ في غليه وتقطيره. ستكون هناك كحول إفرنجية، "عرقي النصارى" كما تسميه فايت ندو محاكية تسمية أمها عز القوم، مثل الجن والشيري والبيرة. لكن عرقي فايت ندو لا مثيل له. كانت محترفة، ولا تصنعه إلا للمناسبات شديدة الخصوصية.

سيذكر الناس زواج عبد الحفيظ ود البدري طويلًا، وسيذكرون إلى الأبد كيف سكروا بعرقي فايت ندو.

* * *

مع الشروق تغادر فايت ندو منزلها الصغير.

هو فناء ضيق به حجرة وحيدة، لها حائطان مائلان بلا باب. تتكئ على الحجرة سقيفة من جريد النخل تسندها أعواد من الحطب. الحائط الخلفي للمنزل متهدم منه جانب بضغط تلٍّ من الرمال، وهو المخرج الذي يُستخدَم للذهاب إلى الخلاء للتبرُّز، أما البول ففي أي ركن من الفناء، ثم يُرَش عليه الماء.

تخرج فايت ندو من هذا الركام، الذي تسميه منزلًا، وتقطع مع صعود الشمس طريقًا طويلًا نحو الغرب قاصدةً المرسى.

جسدها بارز العضلات كرجلٍ مكتمل الفحولة، لكن ملامحها الأربعينية تمسك بملاحةٍ أنثوية رائقة.

تغرس في الرمل قدمها، وتقتلعها بقوة. تمسك بيمناها حمولة على رأسها، وتتدلى يسراها حاملةً حقيبة قماش. تمر بين بيوت القرية التي تنفض النوم عنها. يصادفها حاج بشير على حماره مبكرًا في طريقه لإرسال تلغرافات التأييد للنظام الجديد في العاصمة. تناوشه الهموم فلا يرى المرأة العابرة. تناديه مسلمة، فلا يجيب. تقول لنفسها: "للناس مشاغل".

حين تنتهي البيوت تنتهي الرمال، وتحت قدمي فايت ندو تتحول الأرض إلى تراب أسود خصب. تتخذ طريقها في دروب ضيقة بين النخيل، وعند واحدة من جنائن آل البدري تسمع ضجيج الغجر.

ترى جمهرة منهم مختلطين رجالًا ونساءً وأطفالًا، يخيمون أسفل النخيل. بعضهم نائم، وبعضهم يُقلِّب أوانيَ أو يبحث عن شيء ما في جوالات ممتلئة بالنفايات. بعض النسوة يجُسن في المكان يلتقطن التمر المتساقط عن النخيل. ما زال أخضر في حجم النبق، لكنهم يأكلونه متلذذين. الأطفال يجولون نصف عراة، لا يستر نصفهم الأسفل ساتر.

تقف فايت ندو عندهم. تصيح بصوت عالٍ:

- يا ملاعين! طبعكم الخراب كالفئران.

يجيبها بعضهم بالتجاهل، وبعضهم بضحك أجش.

- الله يقصكم! لا بلد لكم تلمكم؟

تجيبها امرأة بصوت غليظ لا تعبير فيه:

- البلاد بلاد الله، ونحن عبيد الله.

صوت الغجر، رجالًا ونساءً، محايد دومًا، إن مزحوا وإن غضبوا، لا يدرك السامع فرقًا. هم كطنبور ما به إلا وتر واحد.

لا يعبؤون إن شُتِموا، ولا يملُّون إن رُفِضوا. يأتون في جماعات، ويغادرون في جماعات. يرتزقون بالارتحال، ويقتاتون بالالتقاط.

لا صلات لهم بمكان أو شخص، إلا حكاية وحيدة عن العافية وبهية، كانت تحكيها عز القوم عن أمها الخرفة، ما حكاها غيرها بشر، ولا عرف

الناس حقيقتها من خرافتها، لكنها تفسر بعض ما تراه حجر نارتي ولا تفهمه.

ما عدا ذلك فالناس تعدُّهم فئرانًا كما دعتهم فايت ندو. يعدُّون طبعهم خرابًا، وقربهم مرضًا.

تبصق فايت ندو أسفل قدميها.

- أنتم لا تعرفون الله. كفانا الله شركم.

يبول طفل عارٍ قربها كأنه يجيبها؛ فتندفع في طريقها محتضنة غضبتها.

تكره أن ترى قريتها ينتهكها الغجر كل عام. قبل أن يُغيِّبها النخيل يأتيها حجر لا يصيبها، وتسمع صوتًا غليظًا يسبُّها بلا تعبير:

- يا خادم.

تلتفت فترى الحشد يرمقها في جمود. تصرخ فيهم:

- الحمد لله، خادم، سيدي عمدة، أفضل من غجر رائحتهم نحاس.

لا ينفعل أحد، ولا يعبأ بها أحد؛ فتسرع في دربها مثيرةً التراب الأسود. تدعو الله أن يريح البلد من فئران الغجر.

* * *

حكاية العافية وبهية الغجرية لا يُعرَف لها زمان. ولا تبدو تفاصيلها دقيقة. هي ككُل حكايات الأهالي تتغير في كل مرة تُحكى. يُضاف شيء

هنا، وينقص شيء هناك. يتبدل اسم مكان اسم. تدخل عبارة رنانة جديدة. لكنها دائمًا تظل محتفظة بهيكلها الرئيسي، بشخصيتيها الأساسيتين، **العافية** جدة آل **النايرِ**، والغجرية **بهية**.

تزوَّج **محمد الحسن**، جدٌّ لآل **النايرِ**، **العافية** الغريبة عن **حجر نارتي**.

ستقول حكايات **العافية** عن نفسها في السنوات الأولى إنها ابنة مقاتل عظيم من مقاتلي الشايقية. والدة **عز القوم**، راويتها الوحيدة، تُخبر عن مقاتل دموية خاضها والد **العافية**، وتحفظ الشعر الذي قيل في رثائه لما مات. لكن الشعر يندثر برحيل **العافية** ونسيان **عز القوم** لما أنشدته أمها.

بعد سنوات أخرى، ستزعم **العافية** أنها من نسل الشيوخ الوراريق قرب **ساب الزبيرية**. هذا الزعم ستُصرِّح به بعد الهبوب الكبرى التي عصفت بـ **ساب الزبيرية**، فلن يعرف أحد الحقيقة.

بعد سنوات في **حجر نارتي** وصعود آل **النايرِ**، ستغير **العافية** حكايتها، وتنتسب إلى **حجر نارتي** نفسها، وتقول إن جدها أحد مؤسسي القرية. ستواجه بغضبٍ كل من يزعم أن أصلها ينتسب إلى غير القرية التي يتسيَّدها نسلها.

تتفق كل الحكايات المتعددة على شيء وحيد: صغر سن **العافية** لما تزوجت **محمد الحسن**. كانت صبية نحيفة مريضة لم تجاوز السادسة عشرة، لكنها

كانت صلبة ذات عزيمة. شخصيتها القوية وُلِدت معها، وزُفَّت بها لزوجها الذي لم تعرفه من قبل.

تحكي عز القوم -نقلًا عن أمها- عن المفاجأة التي واجهت العروس الصبية.

في ليلتها الأولى مع زوجها جهزتها النساء بالدلكة والصندل والبخور. كانت عارية تلف جسدها بثوب القرمصيص، لا يربطه شيء، ما يحتاج غير لمسة حتى يسقط كاشفًا كل شيء. لكن الزوج لم يُبدِ رغبةً في عروسه!

احتضنها قليلًا، عبث بيديه في جسدها. ثم تنهد، وأولاها ظهره!

فزعت العافية!

أصوات الزغاريد تتردد خارجًا. ضجيج المحتفلين لم يخفت بعد، لكن زوجها أولاها ظهره وحاول النوم.

كأيِّ فتاة حسنة التربية تلقت تصرفه بخضوع. أحكمت ثوب القرمصيص على جسدها واضجعت جواره. ظلت تسمع أنفاسه المضطربة حتى الصباح.

لم تشِ به لما دهمها النسوة في اليوم التالي. كل الأسئلة والنظرات وبعض اللمسات من العجائز قابلتها بتصنُّع الحياء.

قالت لها عجوز:

- احكي يا بنت! بشّري خالاتك بخبر ليلتك.

لكن العافية تجاهلتهن، وقُرب الليل حرصت على استعمال مزيد من الدلكة والجلاد والخُمرة والصندل، وعركت جسدها بكثير من الدهن والزيت.

دخل عليها محمد الحسن، ألقى السلام.

وقف ينظر إليها طويلًا. فكرت العافية أن تنحي ثوبها، لكن تربيتها منعتها. لا يليق ببنات الأسر أن يبدين تجاوبًا سريعًا، ولا أن يبادرن بالإغواء. وإلا ما الفرق بينهن وبين الإماء؟

الخادم هي من تظهر رغبتها، وعليها دائمًا أن تبدي مشاعر المتعة حتى لو زيفتها، أما بنات الأسر فلا يفعلن ذلك.

أطفأ محمد الحسن السراج. ظنَّت العافية أن الخجل منعه عنها أمس، أما الليلة فهو يستعين بالظلام. تحركت في مكانها لتُهوِّن عليه الوصول إليها في حلك الحجرة.

وضع يده عليها.

الآن سيحدث ما يجب أن يحدث.

سمعت أنفاسه قرب وجهها. وضع على خدِّها قبلة باردة. احتضنها

ومدَّها على السرير الخشبي. تحرك عليها، لمس بيديه ثدييها، وتحسَّس جانب فخذها. أنفاسه مضطربة مثل الأمس، لكن، لا شيء.

وضع قبلة على أرنبة أنفها واستكان. جسدان في ظلام الحجرة على سرير ضيق، تحيطهما روائح العطور البلدية والتوتر.

لم تتعمد العافية ذلك، لكنها حركت رجلها فلامس فخذها عروسها. لا شيء.

كل ما سمعته من العجائز في الأسابيع التي سبقت زفافها عن أوتاد الرجال، والعضو الذي يُحاكي رِجل سرير الخشب، لم تكن هناك. كانت ملامسة سريعة، لكنها ما أحسَّت إلا قطعة لحم باردة. تململت مرة أخرى، فتأكد ظنُّها. لا شيء.

لا وتد، لا عمود، لا رِجل سرير. فقط قطعة لحم كالتي تراها عند الأطفال.

لم يُثِر أي شيء فيها زوجها.

وقضى العروسان ليلة ثانية بلا نوم.

متى عرفت العافية مزاج زوجها؟

مرات تحكي والدة عز القوم أن ذلك حدث في الليلة الثالثة، ومرات تزعم

أن ذلك حدث بعد أسابيع، وقالت مرة إن ذلك حدث بعد أشهر.

لا يمكن الثقة في حكاياتها التي حكتها في خرفها، خصوصًا حين تحكي متشفية. لكن كل حكاياتها على اختلافها أكدت أن **العافية** فقدت عذريتها في الليلة التي تشجع فيها زوجها ودخل عليها يحمل سوطًا.

هل كانت الليلة الثالثة وهي تنتظر في قرمصيصها. أم كانت بعد زمن كفّت فيه عن الانتظار؟

لن نعرف ذلك، لكننا نعرف أن الليلة التي كشف فيها **محمد الحسن** عن سرّه لم تنسَها **العافية** ما بقيت حية.

وهي الليلة التي قادتها إلى بهية الغجرية.

* * *

لم تتأخر عبير كثيرًا بعد خروج أمها.

غسلت وجهها بشيء من الماء. مسحت على شعرها المبعثر المغبر.

بحثت عن شبشبها فلم تجده، حاولت أن تتذكر. هل عادت به أمس؟ لم تُجهد نفسها في التذكر. خرجت حافية تقصد بيت العُرس. ما أهمية شبشب لخادمٍ صغيرة في يوم كهذا؟ حتى لو لبسته فستتخلى عنه في بيت العُرس وتخدم حافية، وفي النهاية سيضيع هناك.

انسربت في طرقات القرية. مرَّت بجماعات من المزارعين في طريقهم

إلى أعمالهم. لمحت نسوة يسبقنها في السير ناحية بيت حسين البدري، نسوة مجاملات يبكرن للمساعدة خشية اللوم.

مشت في إثرهن.

عبرت قرب منزل محمد سعيد الشيخ. رأت الرجل الضخم المكلل بالوقار والسلطة جالسًا أسفل شجرة اللبخ يتسمّع للراديو بتركيز، ولما قاربت العيادة رأت أحمد شقرب واقفًا أمامها يستاك، وفي يده إبريق من الحديد. بصق شقرب ما بفمه لما لمح عبير.

ابتسم لها. جاوبته بملامح جامدة.

تلفّت ينظر. تأكد أن النسوة لا يرينه. الطريق خالٍ؛ فأشار لها.

هل سيؤخرها عن بيت العُرس؟

ربما يفعل، لكنها لبت إشارته. أفسح لها فدخلت العيادة. وضع الابريق ودخل خلفها. أغلق باب الحديد فأصدر ضجة كأنه يُبلغ عنهما. اضطرب شقرب، ولم تهتم عبير.

وقفت تنظر إليه. اقترب منها وأشار إلى فراشه الموضوع على الأرض.

يعيش أحمد شقرب في غرفة العيادة. يأتيه الأكل من بيت محمد سعيد الشيخ في موعد كل وجبة. ثيابه وحاجياته في حقيبتين كبيرتين من الكرتون المقوى، وجوارهما عشرات الكتب المُتراصَّة في كوم عالٍ، يعلوها راديو حديث.

على جدار الغرفة ملصقان طبيان، يحمل أحدهما صورة تشريحية لجسم الإنسان ودورته الدموية، وعلى الثاني تعليمات التطعيم ضد أمراض الطفولة جوار رسم لسيدةٍ تلقم ثديها رضيعها. وجوارهما على الحائط عبارة بخطٍ مائل كتبها أحمد شقرب في أيامه الأولى بالعيادة: "عاش نضال الطبقة العاملة.. عاش كفاح الشعب".

جلست عبير على الفراش.

لمعت عينا شقرب. قال لها:

- اشتقت إليك منذ الأمس.

نظرت في عينيه ببرود.

يتمنى لو لم تكن هادئة هكذا، لكنها تثيره رغم ذلك. يرمي نفسه جوارها، يمد يده يتحسَّس خدَّها.

عيناها لا تطرفان. تنظر في عينيه صامتة.

ينزل بيده على عنقها، فصدرها الطفل، يقرصه فتهتز الصبية.

يأخذ نفسًا عميقًا ثم يشدُّها إلى صدره. يهمس لها بصوت محموم:

- أشتهيك.

ويهجم على شفتيها الطفلتين بكلِّ اندفاع رغبته.

* * *

يتسكع عبد الرازق على حافة جدول المشروع الزراعي.

عمله مهم، لكنه هيِّن. هو مراقب الجدول. يبدأ يومه من عند ماكينة المياه. يخلع جلبابه ويقف بقميصه القصير. يدير المنفلة، ويشد سير الماكينة. تهدر ويتصاعد دخانها. ثم تنتظم دقاتها ويندفع منها الماء.

واجب عبد الرازق بعدها أن يتتبع الجدول الطيني ليراقب انسياب المياه. يتأكد أن الجدول لا يسرب في مكان ما. يحرص على ألا يسرق مُزارعٌ حصة ريٍّ في غير يومه. يتمشى متتبعًا الجدول ذهابًا ومجيئًا، كعسكري دورية. يشغل مسيره بالغناء.

كان حلو الصوت رائق البال. متزوج من اثنتين. إحداهما بنت خاله، والثانية حسناء من قرية الكونج القريبة. زوجتان راضيتان، تتنافسان على خدمته. فيخرج صباحًا إلى عمله منتعشًا كنخلة جيدة الري.

كان يمشي شمالًا قاصدًا عريش فايت ندو.

هناك يجتمع المزارعون، والعابرون إلى الضفة الأخرى في انتظار المعدية، وطالبو الونس. مع وجود جثة الغريقة سيأتي كثيرون. وسيضيع عبد الرازق بضع ساعات في الونس وشرب القهوة.

لما اقترب من العريش سمع ضحكة الحسين البدري المميزة. ضحكة زاعقة لا تشبهها ضحكة. يطلقها قلب كفؤاد طفل. لم تكسره الأيام ولا هزته النوازل. رجل في الثمانين من عمره، ابتُلي بفقد أكثر من ابن وابنة، وأُنعِم عليه بجحفل من الحفدة. يحكون عن جماله في شبابه. أبيض اللون، ضخم البنية، له شلوخ رفيعة كظل. كان محبًا لمجالس الشرب ومنادمة الإماء. وفي السنة التي حجَّ فيها جماعة من أعيان حجر نارتي على رأسهم العمدة سعيد النابر، عاد الحسين البدري من ميناء جدة بكراتين من الشيري. سُمِّيت تلك السنة بـ"سنة الحجيج". لأن أكثر من ثلاثين رجلًا وامرأة حجُّوا من القرية معًا ذلك العام. يوم عودتهم ذُبِحت العجول والخراف، ومُدَّت أقداح الثريد في شوارع حجر نارتي. جاء المدَّاح والدراويش. قُرئ القرآن في أكثر من ختمة. وأنشد المداحون حتى أُتخِمت جيوبهم بالمال. ثم لما انتصف الليل فُتِحت كراتين حسين البدري. سكر الحجاج والضيوف وبعض الدراويش وأدرك أشقياء الصبية نصيبًا.

دخل عبد الرازق العريش فما وجد موطئًا. حيث يجلس الحسين البدري

يحتشد الناس لسماع حكاياته، والتمتع بدعابات ردوده.

لما وصل كان العجوز يختم حكاية مثل "الما عندو كبير يشتري ليهو كبير". لم يسمعه عبد الرازق يحكي، لكنه -ككل الجلوس- يعرف الحكاية. وككل الجلوس، ضحك مستحسنًا كأنما لم يفُته شيء.

لم يترك حسين البدري لجُلَّاسه وقتًا ليذبل اهتمامهم. انتقل بلا تمهيد إلى حكاية أخرى.

- تعرفون طبعًا حكاية "كبير المكابراب".

تجاوب الجلوس بالابتسام البشوش والضحك. أصوات متفرقة قالت له "احكها!"، "احكها عليك الله".

اتكأ بخده على عصاه. قلَّب بصره في الحضور.

- قالوا إن تاجرًا مرَّ ببضاعته على ديار المكابراب.

تمتم أحد الحضور مكملًا:

- المكابراب في ديار الجعليين.

ما اهتم به حسين البدري.

- هجم على الرجل جماعة من عيال المكابراب ونهبوه. ثم قالوا له لن تذهب حتى ندق لك الدلوكة وترقص. (ضحك بعض الجالسين) توسلهم الرجل ألا يسلبوه كرامته وقد سلبوه بضاعته. لكنهم أصروا. دقَّ العيال

الدلوكة ورقص الرجل، فخلُّوا سبيله. مشى البائس قليلًا فلقيه رجل كبير من المكابراب، له هيبة ووقار. فسارع إليه شاكيًا: "يا عمي! أدركني. ما أشقاني". سأله ما به؟ فحكى التاجر ما حدث له. فقال العجوز متحسرًا: "شقيٌّ عمك الذي لم يحضر رقصك".

ضحك الجالسون حتى اضطرب موج النيل.

الحكايات ذاتها. يطعمونها بعضهم. يهيمون بالونس.

لمح عبد الرازق وجوهًا غريبة بين الحاضرين. انحنى هامسًا لأقرب الجلوس:

- جماعة سروة؟

- أيوه. لكن الجنازة ليست من عندهم.

- جنازة الجن هذه! من أي مصيبة أتتنا؟!

- غالبًا يدفنوها اليوم.

- سليمان قال تستحمل يوم كمان.

- وانت تصدق كذبات سليمان؟ سليمان يقول أي شيء.

ارتفع صوت الحسين البدري حين هبَّ قائمًا فبعثر همسهما.

قال بصوته الجهور:

- اليوم يا جماعة حنة ابني عبد الحفيظ. الما يشرفنا بالحضور لا بينا لا بينه ليوم الدين.

تناثرت التهاني في العريش.

أعاد الحسين البدري التأكيد. ثم هجم على باب العريش خارجًا فتنفس المكان. تبعه بعض المزارعين العاملين لديه. يسألون عن رأي أو يراجعون مسألة.

وهو يحدثهم لمحها في مكانها الذي لم تبرحه.

فاطمة.. أم الصبية.

تجلس، تنتظر أن يبصق بحر النيل مزيدًا من ضحاياه.

تأكلها الشمس. لكنها لا تستظل.

رمقها الحسين البدري وتذكر ثمرة فؤاده التي قُضَت.

لماذا لم ينخرني الوجع كما نخرك يا فاطمة؟

أسعاد أعز من سكينة؟

تذكره أم الصبية دومًا بما فعل.

ليتك تنسين يا فاطمة. ليتك ترجعين إلى براح الدنيا وزخرفها الذي زهدته.

لكنه يعلم أن فاطمة ما كانت لتسلى سعاد.

* * *

يقولون إن بحر النيل إذا لفظ غريقًا أتبعه اثنين من الغرقى القدامى الذين تمسَّك بهم سابقًا.

تأتي فاطمة وتنتظر. أحيانًا يُصدِّق بحر النيل ما يُقال. ويلفظ جثامين غارقة قديمة، نسيها أهلها ونسيها الموج في جوفه. وفاطمة تفحص ما يُفرج عنه النيل فلا تجد سعاد.

* * *

كانت سعاد في العاشرة من عمرها لما خرجت.

ما كانت تشبه أية طفلة أخرى.

وُلِدت سعاد برأسٍ صغير مسطح، وجبين بارز. عيناها مشقوقتان، ثقيلتا الجفنين. تضحك كأنها تناغش الملائكة.

لم تتعلم الكلام سريعًا.

قال الأقربون بحزن:

- إنها مبروكة.

وقال الأفندية بذكاء:

- طفلة منغولية.

وقالت **فاطمة** بتصميم:

- هي ابنة حشاي.

عشر سنوات عاشتهن **سعاد** في كنف أهلها.

تهشُّ عنها **فاطمة** الدنيا كما يهشُّ الطير عن صغاره.

ثم خرجت. حافيةً في قرية كلها تعرفها. مشت توزع الابتسامات للناس والحيطان والرمال والحمير والشمس والنخيل وأشجار المانجو وجنائن البرتقال.

أخذها بحر النيل.

* * *

"يا حفيظ مبروك عليك / ده اليوم الدايرنو ليك"

وتردد الفتيات: "مبروك عليك".

صوت وزين الدهب يشق المساء في منزل حسين البدري. تدق على دلوكتها بحماس، وتصدح ملء صدرها بالغناء.

حولها جماعة من البنات والصبايا.

الأزياء مهرجانٌ من الألوان. كل فتاة جهدت أن تتألق في يوم يحتشد فيه الشباب. تنهض واحدة فجأة لترقص. تزحف بقدميها على التراب حافية. تتزحزح مثيرةً الغبار. تميل بنصفها الأعلى إلى الخلف. يبرز نهداها ومؤخرتها. تشرع يديها كجناحي حمامة تهمُّ بالطيران. تُرقِّص رقبتها يمينًا ويسارًا مغمضة عينيها. لا تنظر لأحد. ترقص كأنما تحلّق بعيدًا. لم تعد

أنثى. إنها حرة. تنسدل جدائل شعرها على رقبتها، أو ظهرها إن كانت حسنة الحظ.

بعد قليل من الرقص يقفز نحوها أحد الشباب مدفوعًا بنشوة الذكورة. تدعمه الزغاريد وصيحات الرفاق. يهزُّ يده فوقها ويخبط قدمه على الأرض بقوة. تحييه الفتاة بأن تميل رأسها ناحيته فتلمس صدره بجدائلها الطائرة.

يرجع الشاب الجريء المحظوظ إلى رفاقه فيستقبلونه ضاحكين.

وترقص الفتاة كأنها تعانق السحب.

العروس عبد الحفيظ يجلس على سرير خشب قصير وسط حشد من العجائز. يدهُنَّ رجليه بالدلكة. ويضعن الحناء على قدميه الضخمتين وكفيه العملاقتين.

الفوانيس والرتاين في كل أنحاء الفناء الواسع. والضيوف يتحلقون في مجالس منفصلة. كل مجموعة لها ما يشغلها.

يتحرك حاج بشير بين الجميع متأكدًا أن كل شيء على ما يرام. يصيح بمن يخدمون:

- اخلص بسرعة يا بني آدم.

يسعل كلما صاح.

لا يكف عن الصياح. لا يكف عن السعال. صباح اليوم رأى الدم على جلبابه. لكنه عزم على الكتمان.

البلد مشغول بالضيوف فلا وقت للشكوى. يغالب الفتور الذي يسيل من صدره فينهش قوته ويتحرك في كل مكان. يتعثر بوالد العروس الحاج حسين البدري فيبتسمان لبعضهما ويمضيان.

ودٌّ قديم جمع بين الرجلين. ودٌّ يتجاوز كل تنافس بيتي الناير والبدري، ولا يعبأ بالخلاف الطائفي؛ إذ ينتمي الأوائل إلى الطريقة الختمية، بينما ينتسب الآخرون إلى أنصار المهدي.

الذبائح معلقة خارج البيت. يجري الشباب حاملين اللحم عنها إلى جمع النساء في المطبخ اللائي تشرف عليهن حاجة الرضية. فايت ندو ورفيقاتها من الإماء السابقات يشوين اللحم، ويغرفن المرق، ويقلبن الرز.

تصرخ حاجة الرضية:

- خيابة بنات هذا الزمن. أهذه خدمة؟ أهذا طبخ؟ تركتن عمل النساء وتفرغتن للمرقعة وقلة الأدب.

تهمُّ بتقليب اللحم المشوي فتسارع نحوها أكثر من امرأة. "عنك يا أمي الرضية. نحن نتكفل بذلك".

تتركه لهن على مضض.

تلتفت العجوز الغاضبة دومًا ناحية الشباب الذي يحمل اللحم.

- ماذا تنتظرون؟ تتمايعون جوار النساء. ضعوا ما تحملون واخرجوا إلى حيث الرجال. إن كنتم رجالًا.

يفرون من أمامها.

حاجة الرضية مخيفة كحرائق النخيل.

كلما مرَّ عمرها شحذ نصل طبعها. تُصرِّح دائمًا إنها تكره "قلة الأدب، وأولاد الحرام".

جوار الذبائح كانت مجموعة من الشباب متحلقة حول حامل طنبور يغني.

"ماني قدرك يا بثينة/ ماني فالك للسمح

ما دام سعادتك في القروش/ حالي ما داير شرح"

يتأوه الشباب حزنًا على الحب الذي قتله الفقر. يتنهد كل واحد متخيلًا بثينته. يحلمون، ولا بثينة هناك. إنما هي الأمنيات.

يمرُّ بهم الرشيد عجلًا. يناديه بعضهم، فيهزُّ يده مبشرًا ويمضي.

كان تمساح نيل يندفع خلف فريسته.

في هذا الزحام وانشغال الناس، كان قرر أن يقبض على صيده الذي شغله.

مرَّ بالمطبخ فرأى النسوة المحتشدات حول الطعام. حاجة الرضية تلقي أوامرها. النساء يجرين عجِلات للطاعة.

خرج لساحة الرقص. دهب تشعل الليل.

"الله لي/ البريدو ما بيشمت عليّ

يا حباني/ برد الليل عليّ

البريدو ما بيشمت عليّ"

الفتيات يُثرن الغبار رقصًا. الفتيان يوشكون على الطيران من السعادة. كل هذه الأجساد بثياب ملونة ترقص لهم. لم يحِن أوان الخمر بعد. لو وجدوها الآن لانفجر العالم.

فتيات راقصات، صوت دهب الندي، وخمر. هل يريد فتًى أكثر من ذلك؟

يبحث عن عبير فلا يجدها. قرر أن يتبع سيرتها فجاس بالأماكن النائية وحيث يموت الضوء ويرتع الظلام. عثر على بعض العجلين مع

فتيات أخريات. حيَّاه الرجال بضحكات عصبية. وحاولت الفتيات إخفاء وجوههن خجلًا. لكنه ما كان يعبأ بغيرها.

أين أحمد شقرب؟

مرَّ بالجموع ثانية يبحث عنه. ربما لو وجده لعثر على عبير مختبئة في عينيه.

دخل ديوان الرجال. علية القوم من كل المنطقة يجلسون في ديوان منفصل. أمامهم أطيب ما اختارته النسوة من لحم مشوي وثريد. وزجاجات الشيري والبيرة لم تُمَس بعد.

كانت السياسة ما يشغلهم لما دخل الرشيد.

شقيقه **محمد سعيد** الشيخ كان يتحدث.

- في الخرطوم لا تخف إلا من ثلاث أشياء. الله والكهرباء والعسكر. نحن هنا في أمان إلى حين. نخاف الله، والفيضان، والسوس في التمر.

أجابه أحد آل البدري:

- رئيس مجلس قيادة الثورة من أبناء الأنصار.

- لو كان المهدي نفسه رئيسًا لمجلس قيادة الثورة فلا أمان للعسكر.

- أنتم يا شيخ **محمد** أيدتم العسكر وانتهى الأمر. لكننا ننتظر الإمام

الهادي ليقول قوله. لكن لا نقلق لأننا نعرف أن العقيد جعفر سليل أسرة أنصارية. والأنصار يحمون هذه البلاد بدمهم.

ضحك محمد سعيد الشيخ.

- يا خفيف العقل! ختمية وأنصار هناك في الخرطوم. الأزهري سيد الاسم في المعتقل. أحمد حفيد الإمام المهدي في المعتقل. أما هنا من يأتينا بالجازولين هو مهدي الله وحفيد رسوله ولو كان شيوعيًا. رسائلنا للعسكر ستضمن لنا الجازولين. بعد أن تحصد تمرك ادعُ للمهدي أو للسيد علي الميرغني. لا فرق. نحن مزارعون. فدع صراع السياسة للأفندية.

قال أحدهم:

- أنت كدت أن تصبح أفنديًا.

- كان الزمن غير الزمن. في الثلاثينيات لم يكُن الأفندية كاليوم. ولا العسكر. اليوم بناتنا طبيبات! من كان يتخيل؟ آل الناير بهم ست طبيبات، درست اثنتان منهن خارج السودان. وأنا الرجل، ذكر يبول واقفًا وليس كالحريم لا مؤاخذة، لما اختارني الإنجليز لكلية غردون رفض والدي رحمه الله (صدح الحضور بالترحُّم) حتى توسَّط المأمور الإنجليزي. ومنع بشير من دخول المدرسة المصرية في تنقسي. قال يكفي للتعليم واحد.

عاد متحدث آل البدري إلى الجدل:

- نحن أنصار! أهل عقيدة ودين. لا نخاف.

ضحك محمد سعيد الشيخ.

- يا زول دع عنك كذيباتك. أبي قاتل مع المهدية. ثم لما انتهت عاد ختميًا كما كان. إن كنت لا تعرف التاريخ فاسأل ابن عمك حاج حسين يخبرك. بيت النايرِ كله قاتل في المهدية.

ناداه صوت عابث:

- لا شك في ذلك. لكن في أي جانب؟

ضجَّ المجلس بالضحك فأمسكت حكمة محمد سعيد الشيخ لسانه. ضحك مع الحضور، الذين لم يكُن بينهم شقرب.

همَّ الرشيد بالانسحاب خلسة كما دخل خلسة. لكن شقيقه لمحه. ناداه.

- كل الأمور مظبوطة يا الرشيد؟

- حاج بشير وحاج حسين يشرفان على كل شيء يا شيخ، لا تقلق.

- والعريس؟

- غارق في الدلكة.

تنهد محمد سعيد الشيخ.

- يا ليتنا نغرق في الدلكة بعد حالنا هذا.

ضحك الجلوس. يعرفون أن شيخ الخط والرجل الأقوى في المنطقة لا يجرؤ على ذكر الزواج الثاني إلا مزاحًا. زوجه حاجة الرضية تخيفه أكثر من أي شيء. لكنه اعتاد المزاح قائلًا: "الرجل الذي لا يخشى زوجته ليس رجلا".

أشار إلى شقيقه.

- تعالَ إذن. هل تبحث عن شيء؟

اضطرب الرشيد. هل يعترف أنه يبحث عن عبير؟ عن سحرها الذي يخلع القلوب، ولذتها التي تفوح منها كفضيحة؟

قال بصوت خافت:

- كنت أبحث عن أحمد شقرب.

- لماذا؟

قبل أن يجد كذبته المناسبة أتته النجدة. هرج الناس خارجًا وتصايح القوم.

- ماذا يحدث؟

- هل تشاجر الفتيان؟

اندفع أحدهم إلى الديوان متعجلًا، صرخ:

- أين شقرب؟

نهره محمد سعيد الشيخ:

- ماذا هناك؟

- عبد الرازق. لدغته العقرب.

* * *

كان سليمان الحواتي هو أول من رأى وزين الدهب حين وصلت قرب العصر.

غادرت المرأة مدينة الدبة قبل يومين. قطعت الطريق شمالًا متسولة العابرين. ركبت سيارة لاندروفر حكومية من المدينة. ثم نزلت عنها لتركب مع جماعة من أهالي قرية كلّرو حملوها على حميرهم. ثم باتت على حافة النهر حتى اقتنصت مركبًا حملتها مسافة. صعدت بعدها إلى الطريق لتجد ركبًا يحملها إلى مسافة غير بعيدة عن حجر نارتي. فأكملت طريقها سيرًا بمحاذاة النيل حتى بان لها عريش فايت ندو.

سليمان الحواتي كان يصعد القيف من مربط الجنازة. تأكد مرة أخرى من أنها تتحمل يومًا آخر قبل الدفن. أغضبه ما سمع بعض الناس يقولونه عن أنه أخطأ التقدير وأن الجنازة لن تتحمل وستتفسخ إن بقيت يومًا آخر.

تسلق القيف رافعًا بصره عاليًا فوجد فاطمة أم الصبية في وجهه. يصبغ الحزن وجهها.

يعرف أنها لن تجيب لكنه قال لها:

- يا بنت الناس! ما يبقيك في هذا الهم؟ تقتلين نفسك بالحزن. لا الغريقة ابنتك، ولا جثة تظهر بعد كل هذا العمر. عودي إلى أهلك فاستظلي بهم.

حولت وجهها عنه دون أن تفارق عينيها بحر النيل.

- يا بنت الناس! ما ذهب لا يعود. وابنتك مبروكة. هي في الجنة الآن.

كان سليمان الحواتي يحادث بحر النيل فيجيبه الموج. لكن فاطمة لا تجيبه.

صامتة كجذع نخلة مقطوع.

هزَّ رأسه أسفًا وذهب يلتفت عن المرأة الثكلى لما لمح دهب تمشي من بعيد حاملة أغراضها على رأسها. تتهادى ويرتج جسدها كأنما تمشي على الماء.

يمكن أن يخطئ تمييز زوجه من مسافة كهذه. لكنه لا يمكن أن يخطئ تمييز دهب.

هشَّ لرؤياها. نسي انتصاره بصمود الجنازة وصاح يبشر من بالعريش:

- جاءت وزين الدهب يا ناس. أبشروا بالطرب.

مدَّت فايت ندو رأسها تنظر. تلقَّى سليمان العائدة بالعناق وحمل عنها حاجياتها.

ابتسمت لها شقيقتها. تعانقتا. ومن العريش خرج الجلوس يسلمون على الغائبة التي أتى بها الواجب.

- يا لزمنك يا دهب.

- بعودة الأيام والله.

- حبابك يا الدهب. الجابك يجيب عقابك.

بشوشة دهب، ويأنس لها الكبار والصغار. أمة محررة في منتصف الخمسين من عمرها. من لم تغنِّ في زواجه فكأنه ما تزوج. ومن لم تجهز له زوجه فكأنه ما عرف النساء. أما تاريخها في إمتاع الرجال فذلك مما يذكره أهله فيبتسمون ولا يحكون. يُقال إنها المرأة الوحيدة في كل المنطقة التي جربت رجال الإنجليز. عشقها مأمور إنجليزي في صباها وكاد يُجَن بها. لكن لا أحد يعرف الحقيقة بدقة.

زواجها المبكر وانتقالها إلى مدينة القولد ما منعاها من زيارة حجر نارتي كلما طلبها طالب أو دعاها واجب.

ولزواج عبد الحفيظ ابن الحسين البدري ما كانت لتنتظر دعوة. أرسلت مبكرًا تعلن قدومها.

صاح أحد مستقبليها:

- ضمنًا غناءك. فلم يبقَ لنا إلا عرقي أختك.

ضحكت دهب. كانت مليحة كأختها. لوجها عذوبة نبيذ صافٍ، لكن جسمها بدين يرتج بالشحم. قالت مُطريةً شقيقتها:

- تشربون "فايت ندو ووكر" فتنسون غناء وزين الدهب.

ضحك الحضور. وتحمَّس سليمان الحواتي فأعلن أنه سيوصلها القرية على حماره.

جرى سريعًا بجسده النحيل وقصر قامته. أطلق حماره من مربطه وعاد. ساعد أكثر من شخص دهب أن تصعد على ظهر الحمار. انحنى ظهره وما أنّ. وضعت حاجياتها على حجرها. ألقت دعابة على الواقفين وتحرك الحمار بها ورفيقها.

تمازحا طوال الطريق.

كلما مرَّا على جماعة من أهل القرية هشُّوا لها. مرَّا بالغجر فنادت عليهم. التفت بعضهم. أشارت إلى أحدهم وهتفت:

- صالح الغجري.. أما زلت حرامي؟

تشقق وجه الغجري بابتسامة.

- يا دهب! أنت امرأة خير. إيه جابك لقرية الشر هذه؟

لعلعت ضحكة دهب عاليًا وعبس سليمان.

- يا صالح هؤلاء أهلي. لو أطلقتهم عليك لدفنوك حيًا.

قال صالح الغجري باستهتار:

- المحيي الله.. والقاتل الله.

سألها سليمان الحواتي:

- بِتٍّ تعرفين الغجر أيضًا؟

- نزلوا عندنا في الدبة أكثر من مرة. لو كان لهم كبير فهو صالح هذا. لكنهم لا يعرفون شياخة ولا عمودية. كلهم سواسية.

التفت سليمان ينظر إلى الغجري. طويل، بكرشٍ ضخم يمتد أمامه. عيناه ملونتان كقومه. وبشرته بيضاء يكسوها الوسخ والقشف.

- أنت يا دهب تعرفين العقرب في جحرها.

ضربت على كتفه من الخلف بدلال وضحكت.

- وأنت يا سليمان تنيك العقرب في شوكتها.

جلجلت ضحكته بين الشجر. رمقهما النخل في فضول.

- ما زلت تذكرين يا دهب؟

- وهل نسيت أنت لما تطوعت لتوصلني؟

ابتسم. قال مراوغًا:

- يا امرأة إنما أردت أن أقدم لك خدمة. هل ماتت المروءة بين الناس؟

- تذكر المروءة فلا تبحث عني ليلًا بعد الحفل.

- دعيها معكِ. وسأتي إليكِ باحثًا عنها.

ضحكت دهب حتى مالت عن ظهر الحمار. تشبثت بـ سليمان.

- يا رجل كبرنا على هذا. بنتي الكبيرة أنجبت قبل ثلاثة أعوام. أنا جدة الآن. مالك وللعجائز.

- كل شيء جائز، حتى نيك العجائز.

لم يكُن للنخيل أن يستر ضحكهما هذه المرة. غرقا فيه حتى سالت دموعهما. مسحها سليمان عن وجهه وهو يقول:

- أستغفر الله. أستغفر الله العظيم. والله زمان يا دهب.

مدَّت يدها تجوس في حاجياتها، ثم أخرجتها تحمل علبة صغيرة من البلاستيك. مدَّتها لـ سليمان من خلفه.

- خُذ هديتي لك. عرقي من أجود خمور الدبة.

تلقف الهدية وطوى عليها جلبابه.

- تنافسين فايت ندو الآن؟

- لا والله! لكني كرهت أن آتي بلا هدايا للأهل.

- خير هدية. أختك لا تخرج خمرها إلا للأكابر أولًا. ثم تمُنُّ على أمثالي بما بقي. صياد مثلي لا ينال إلا بُقية في إناء.

زجرته مداعبة:

- هل تشكو أختي الآن؟

- أشكوها حتى أشرب خمرك فأنسى.

قطعت زغاريد النساء حديثهما. وصلا بيت العرس فضجَّ المكان برؤية وزين الدهب.

ما إن نزلت حتى وُضِعت الدلوكة في يدها وتحلق حولها المستقبلون. بلا تأخير أشرعت صوتها وهي تدق على الدلوكة:

"يا أمه غني ليه / الليلة جاكِ ساير / يا أمه غني ليه / عبد الحفيظ ود القبايل".

راقبها سليمان تغوص في الحشود.

ابتسم. تذكَّر تاريخًا قديمًا.

تنهد في حنين. ثم قبض على هديتها وهشَّ حماره ناحية الزريبة.

* * *

غرس السعال نصاله في صدر حاج بشير.

غامت الدنيا في عينيه. اتكأ على الحائط. جهد ألا يلحظ الناس ما به. عاوده السعال مرة أخرى. غطَّى فمه بكمِّ جلبابه. لما أنزله كان الكمُّ مليئًا بالدم.

رأى صباح اليوم الدم على جلبابه الذي كان يلبسه أمس. وها هو يعود.

رجف جسده بالقشعريرة.

هل هو المرض أم الخوف؟

أغمض عينيه.

أصوات الغناء تأتيه من بعيد. وحراك الناس حوله كالحلم.

"يللا يا المحجوب قوم سوق / فارق أم درمان عجِّل بالمروق"

هل من يغني في الفناء، أم الغناء في رأسه؟

مرهق كأنما مشى من آخر الدنيا. أحس الآن بما أصاب الحصان.

كان ذلك قبل نحو ثلاثين عامًا. لم يفهمه إلا اليوم.

رحلته كانت طويلة جدًا. ربما إن واصل إغلاق عينيه؛ يرتاح. ربما إن واصل إغلاق عينيه؛ يراها.

سكينة!

هل أنتِ هنا؟

سكينة!

"حاج بشير!"

انتفض. فتح عينيه فرأى شبحًا غائمًا يقف أمامه. فُوجئ بأنه يجلس على الأرض. ضيَّق عينيه. ميَّز سليمان الحواتي.

قرفص الصياد قبالته.

- هل أنت بخير يا حاج؟

- زي البُمب.

- تبدو مرهقًا. جبينك متعرِّق.

لمح الدم على كمه.

- أبِكَ جرح؟

- لا! لعله من دم الذبائح. أنا بخير. فقط...

قطع السعال كلامه. اهتز جسده بعنف.

- يا حاج الله يرضى عليك. شوف أحمد شقرب واكشف. صحتك بالدنيا. مالك ولزواج عبد الحفيظ وعبد الزمبار. ارتاح يا حاج.

مدَّ حاج بشير يده واستند إلى كتف سليمان ناهضًا بعزم. كابر نفسه ليقف. نده الصالحين بيقين، وتشبث بالأولياء:

- يا سيدي الحسن.

شده سليمان الحواتي معينًا.

- الشيوخ الوراريق يلحقوك وينجدوك يا حاج.

استجمع نفسه. خُيِّل إليه أنها كانت قربه ومضت. لوهلة ظنَّ أنه لمحها تسير مبتعدة. لكن المرأة التي ينظر إليها وقفت قرب ضوء فانوس فميَّزها. لم تكُن تشبهها قط لتكون هي.

- خلاص يا حواتي. يللا شوف وراك إيه يا بني آدم. أنا بخير.

غمغم سليمان محتجًا. لكنه ما كان ليجادل حاج بشير. كما أن خمر دهب المخبأ بثيابه كان يصرخ باحثًا عن رفيق.

ترك الحاج بشير مكانه يقاوم الدوار. تحرك يبحث عن نديم. لقي عبد الرازق في وجهه.

- محظوظ أنت ورزقك في قدميك.

أبرز كنزه فأضاء وجه عبد الرازق.

- عرقي فايت ندو؟

- بل ألعن وأضل. عرقي دهب، وارد الدبة.

صاح عبد الرازق:

- يا ألطاف الله.

ثم نظر حوله. سأل:

- وحدنا أم جماعة؟

- ليس هناك ما يكفي جماعة. فلو نأينا عن الناس؛ شربنا ما ينفعنا.

- تعالَ أدلك على مكان قريب، ولا يطرقنا فيه أحد.

مشيا داخلين البيت. ظنَّ سليمان الحواتي أن عبد الرازق سيذهب ناحية الخلاء ليتجنبا الناس. لكنه مرَّ به في الفناء المزدحم، ثم دخل خلف أزيار المياه. بينها والحائط ممر ضيق، رطب. آخره براح مظلم لا يُرى. مخبأ مناسب.

جفل الرجلان لما أحسَّا حركة فزعة. لم يريا من هناك. صاح عبد الرازق:

- بسم الله الرحمن الرحيـم! من؟

لمح كتلتين من الظلام تنفصلان. جرى أحدهما مندفعًا فاصطدم به. تجاوزه وفرّ. بينما وقفت كتلة الظلام الثانية ثابتة.

اقترب سليمان منها محاذرًا. صاح مهددًا:

- إنس وله جن؟

لما كاد وجهه يلامسها ميَّز فيها عبير.

ضحك. نادى على رفيقه:

- إنها ابنة فايت ندو.

- العرق دساس يا عبير.

ضحك الرجلان.

- من الشجاع الذي تركك وفرّ؟

لم تُجب الفتاة. وقفت مكانها. كأنها تنتظرهما. أشار إليها عبد الرازق أن تخرج. مرَّت بينهما صامتة ومضت.

رمى سليمان الحواتي نظره خلف شذاها. كأنما تركت خلفها دربًا من نور.

خبط عبد الرازق على صدره بظهر كفه ينبهه.

- يا زول!

ابتسم سليمان.

- قُل لي إن الفتاة لا تثير فيك ما تثيره في كل البلد.

قال عبد الرازق معاندًا:

- أعوذ بالله. ناكح الفرجين في النار يا زول. أنا نمت مع أمها. فهي حرام عليَّ إلى يوم الدين.

- يا زول ده مع الحرائر. مع الخدم ما في كلام زي ده.

- لا ياخ. البعد عن الشبهات أفضل. ده شيء حرام جدًا.

أخرج سليمان خمره. قال له:

- أنت وفقهك! أين نجلس.

أخرج عبد الرازق قدمه من حذائه وتحسس الأرض. رطبة بماء الأزيار. تقدم قليلًا حتى أحس مكانًا ناشفًا. "هنا". قال لصاحبه.

جلس سليمان برشاقة جسده القصير النحيل. بينما مال عبد الرازق ببطء. وضع كفه مبسوطة على الأرض. استند إليها، ثم أراح جسمه إلى الخلف.

جلس بمؤخرته مباشرةً على العقرب التي لدغته.

لدغته هناك.

* * *

.

خرجت عبير من خلف الأزيار إلى ضوضاء الفناء وزحامه.

صوت خالتها يملأ المكان.

"يا االبلّال/ تعالَ لي

يا البلّال/ تعالَ لي"

مرَّت سريعًا بين الجموع فلمحت أحمد شقرب. كان المساعد الطبي يبحث عنها منذ المغرب. عثر بها، ما كان أفضل حظًا من الرشيد إذ وجدها.

كان أشد رغبةً منه في الصبية التي كانت معه صباحًا. والتي كانت معه أمس عصرًا. وأكثر مكرًا منه بالبحث في أماكن لم يفكر بها الرشيد. لذا بصر بها تتبع صبيًا من الصبيان إلى الممر الضيق خلف الأزيار.

انقبض قلبه. لكنه عزَّى نفسه أنها له بعد قليل. يعرف أن صبيان القرية

مولعون بها، ولا يقدر أن يمنع ذلك. سينتظر حتى يفرغ هذا الصبي النجس، ثم يفر بها من بيت العُرس إلى العيادة.

يخدع نفسه أنه ينقذها. هو ليس كالآخرين.

إنه المؤمن بالحرية، بالمساواة. كما أنه لا يؤمن بملكية الرجل للمرأة.

ستخرج من خلف الأزيار بعد قليل فيفرُّ بها من استغلال الصبية والسادة إلى العيادة. حيث يكونان إنسانين متساويين. حيث تكون حرةً بين أحضانه.

سينقذها. كسبَّاح ماهر ينقذ غريقةً من بحر أطماع الرجال.

لم يكُن أحمد شقرب شيوعيًا بالمعنى الكامل للشيوعية، لكنه كان قريبًا من اليسار.

ضاقت بـه الخرطوم عقب حلِّ الحزب الشيوعي قبل أكثر من ثلاثة أعوام. نجا من الموت يوم طارد الإسلاميون وأنصار المهدي الغاضبون ومعهم الجماهير المستغضبة الشيوعيين في الشوارع؛ بتهمة الإساءة إلى عائشة زوج النبي.

المحرر إسماعيل الأزهري، رئيس مجلس السيادة، الرجل الذي رفع

علم الاستقلال، وعد الجماهير الغاضبة التي حاصرت منزله بالتصدي لفساد الشيوعية والشيوعيين. تكالبت الأحزاب، التي لا يجرؤ شقرب أن يسميها رجعيةً أمام أهالي حجر نارتي، وحلَّت الحزب الشيوعي وطردت نوابه من البرلمان.

أصبحت الشيوعية تهمة.

بدأ شقرب بعدها رحلة البحث عن نجاته. أتته فرصة العمل في عيادة قرية نائية لم يسمع عنها من قبل كحلٍّ سحري. يمكنه أن يكون شيوعيًا في حجر نارتي. فقط إن احترم عقائد أهلها الطائفية وانتماءاتهم الحزبية.

حمل كتبه وأفكاره وودَّع أمه وفرَّ شمالًا إلى حجر نارتي.

عام ونصف قضاه في القرية الهادئة الوادعة. عام ونصف لم يكُن له من شيوعيته شيء إلا عبارة كتبها على جدار العيادة لتذكره من هو. "عاش نضال الطبقة العاملة.. عاش كفاح الشعب".

ضد من؟

تبدو الأمور ملتبسةً هنا. لا يعرف كيف يميز بدقة بين من هم إقطاعيون برجوازيون، وبين من هم طبقة عاملة. من هو الشعب في حجر نارتي؟ ما يصرخ به يقينه أنهم كلهم رجعيون. يؤمنون بالطائفية والحكم الديني. لكنهم لا يبدون أعداء. طيبون، هينون، يحيون للونس. هل هؤلاء هم خصومه؟

لم ينقذه من نفســه إلا رؤية عبير ترقص في حفــل ختان الأزهري ابن الحاج بشير.

طفلة، نحيلة، ســوداء، بلا أب شرعي، حافية، شعرها ثائر كغابة من الشوك.

قال لنفسه:

- هذه الطفلة ضحية.

لكن نفسه طاشت بفتنة الطفلة.

جاهد نفســه طويلًا. عام ونصف. أكثر من خمسمئة يوم. وحين ألقت عبـير ثمرات الدوم النيِّ من طرف ثوبها ومشــت نحــوه، محت كل أيامه السابقات.

وها هو الآن. المساعد الطبي. اليساري الهارب من صراعات السلطة والأحزاب. يقف في فناء منزل الحاج حسين البدري، وسط الجماهير المحتفلة بزواج رجل من الســادة، ينتظر فراغ صبي لم يكتمل بلوغه بعد ليصحب فتاته إلى خلوتهما.

لكــن ما إن ظهر الصبي من مخبأه خلف الأزيار حتى مرَّ به صبي آخر داخلًا!

حسب شقرب منتظرًا في مكانه ذاك ثلاثة صبية، خرج آخرهم فارًا لما دخل سليمان الحواتي وعبد الرازق.

قبـل أن يذوب قلبه أتته الرحمـة. رأى الصبية تخرج هادئة. تمشي كأنها ما كانت تفعل ما يعرفه.

التقت أعينهما.

عيناه الواسعتان كنهر مضطرب. عيناها الميتتان كمنزل مهجور.

ثلاثة صبية يا عبير؟

واحد وراء الآخر؟

لا تختارين أحدًا؟

هل اختارته هو لما أفلتت الدوم من ثوبها، أم هو مثلهم؟

هل تهمه الإجابة الآن؟

همَّ أن يمشي نحوها. يلتقطها قبل أن يخطفها مراهق آخر.

همَّ.. تحفز ليشير إليها.

لكن صرخة عبـد الرازق شرخت الظلام من خلف الأزيار، وارتمت وسط فناء العرس فأفزعت الجميع.

* * *

"كانت ترقص كعود بانٍ يتمايل مع الريح. كلما مالت بجسدها النحيل الخالي من أي تضاريس أو بروزات هاجت الجموع، وأطلق الصبيان أصوات

الصفـير. كان بها شيءٌ كأنه ليلة القدر. تحسُّــه ولا تــراه. تعلمه ولا تملكه يداك. هو هنا، لكن ما هو؟"

* * *

جاء محمد سـعيد الشـيخ في مقدمـة الفزعين بجسـده الضخم وثقل حركتـه بأعوامه الثلاثة والخمسـين وهيبـة مركزه. يتبعه عليـة القوم من القرية والضيوف. تلقَّاهم سـليمان الحواتي يحمل -بمعونة جماعة- جسد عبد الرازق الملدوغ.

يخور عبد الـرازق كبقرة في المخاض. أحـد الفضوليين خلفهم يحمل العَقْرَب الميتة. سوداء في طول إبهام. مهشمة بعد أن داس عليها المنقذون. لكنها سبقتهم وبثَّت سمها في عبد الرازق.

صاح حاج بشير، بين السعال والحشود:

- أفسحوا يا بني آدمين. لا تحجبوا عنه الهواء.

ونادى أحدهم:

- أين شقرب؟

نزع المساعد الطبي نفسه من شراك الرغبة. أفلت عبير من ذهنه، لكنها لم تفلته.

تقدم -مشوشًا- يفحص الملدوغ.

- احملوه إلى العيادة.

عبد الرازق يتعرَّق، ويشخر ليلتقط نفسًا.

عجلوا به إلى العيادة.

اضطـرب بيت العرس. هبَّ عبد الحفيظ من سرير الحنة وهُرِع حافيًا ملطخة قدميه بالحناء فاختلطت بالرمل. بلغ الخبر النساء في المطبخ. خرجن هرجات. زوجتاه تولولان. صمتت دلوكة دهب. لم يبقَ غير صوت طنبور يأتي من بعيد، من جماعة لم يصلهم الخبر.

انحـاز الحسـين البـدري بجماعة من قومه، وتوسـطهم محمد سـعيد الشيخ.

- ما الرأي؟

- أمر الله، والمسألة بسيطة. سيعالجه شقرب.

- تفرَّق الناس! كثيرون تبعوا عبد الرازق إلى العيادة.

- الذين ذهبوا سيعودون. لدينا ضيوف.

- نقدم العشاء وننهي حفل الحنة؟

قال محمد سعيد الشيخ بحسم:

- لا هو أول ملدوغ ولا آخرهم. للضيوف حقٌّ علينا. اشكموا النسوة

النائحات ولتعد دهب إلى غنائها. عبد الرازق [illegible] والطفل
في مكانه والحنة في مكانها.

- نِعم الرأي يا شيخ.

- حكمة من يعرف الأصول.

تفرَّق الرجال يهشُّون النساء. صاحت حاجة الرضية:

- المرقعة ودلع النساء! هل أنتن طبيبات؟ ارجعن إلى المطبخ.

تمتمت نور الشام عن واجب مؤازرة زوجتي عبد الرازق اللتين هُرِعتا خلف زوجهما.

- زولة واجب! واجبك المطبخ الآن.

أمرت فايت ندو أن تواصل غرف الرز.

صفع الحسين البدري نائحةً لا تصمت. وأمر أحدهم دهب أن تغني.

محمد سعيد الشيخ قاد الضيوف إلى الديوان.

- حصل خير يا جماعة. الموضوع بسيط. تفضلوا. تفضلوا.

دقائق قليلة استتب فيها الأمر. ربما ثلث من كانوا هنا ذهبوا إلى العيادة، لكن الفناء ظلَّ محتشدًا.

عاد عبد الحفيظ إلى مكانه. باشرت العجائز كشط الحناء المعجونة بالرمل عن قدميه. شرعن في وضع غيرها وهنَّ يحوقلن ويكفكفن الدمع.

دوَّت دلوكة دهب. صفَّق معها بعض البنات في توتر. ثم صدح صوت الأمة:

"جنة من جنات/ وين يا ممبو

جنة العشاق/ يا ممبو"

خفت أثر الحادث، إلا من تعليقات ضاحكة بين متحلقين هنا وهناك.

أما الرشيد فحباه الهرج بصيده أخيرًا.

* * *

في حلكة ما بعد العشاء، بين البيوت الخالية وصوت الحفل يأتي من بعيد، هُرع القوم بـ عبد الرازق إلى العيادة. على رأسهم رفيقه سليمان يعتصره الوجل.

القرية ساكنة كأطلال مهجورة. لا ضوء. لا صوت.

دخلوا به العيادة. أشعل شقرب فانوسًا. وضعوه على السرير. تكدَّس الأقارب والفضوليون في الغرفة الضيقة. تعلَّم شقرب ألا يطرد الأهالي عند الكشف.

يعدُّون التجمهر عند المريض واجبًا، والتجمُّع حوله دعمًا. لكن حاج بشير -الذي جاء متأخرًا بعد أن عرج على بيته- أوسعهم زجرًا حتى خلت الغرفة. ما بقي إلا هو، وسليمان، وزوجتا عبد الرازق، وابن عمٍّ له.

قلَّب شقرب في علاجاته الشحيحة. بينما أخرج حاج بشير من جيبه قطعة فحم. قال للمساعد الطبي:

- خُذ! هذا حجر العقرب. يمصُّ السم من الجسد في ثوان.

تأخر عن الحشد لأنه قصد بيته ليأتي بالعلاج.

تجاهله شقرب عساه يجد ما ينفعه في خزائن طبِّه الفقيرة. لكن خاب بحثه.

جادل قليلًا، ثم انصاع.

بمعونة الرجال، قلب عبد الرازق على وجهه. رفع جلبابه وشدَّ سرواله إلى أسفل. كان عبد الرازق يرتعش كشعلة رتينة.

بموسيٍّ شُقَّ مكان اللدغ. ظهر الدم ثقيلًا أسود. وُضِع حجر العقرب عليه.

سيُخرج الحجر الفحمي السم من جسد الملدوغ. لكنه يحتاج إلى مراقبة لصيقة.

ستكون ليلةً طويلة.

فكَّر شقرب في نحسه. عقرب طائشة أفلتت منه عبير. لولاها لكانت الصبية معه الآن.

لكنه بدلًا من جسـد الصبية، سيقضي ليلته يراقب مؤخرة عبد الرازق في رفقة زوجتين خائفتين تبكيان.

* * *

ربَّ عقرب شفت غلمة.

في قلب الهرج، مدَّ الرشيد يده فأمسك كف عبير. لم ينظر إليها. وقف جوارها ينظر مع المحتشـدين إلى جسـد عبد الـرازق إذ أُتي به من خلف الأزيار.

بينما شقيقه حاج بشير ينشر أوامره، كان الرشيد يشدُّ على كف عبير. لم ترفع إليه عينًا.

ولما تحرك الحشد ناحية العيادة شدَّها مندسًا بينهم.

تسـلل بها من بيت العُرس خائضًا في جزع الخارجين وفضولهم. كأنما يزفون شهوته بالحوقلة والبكاء.

وفي ظلام الدروب الساكنة انفلت من بين الناس وفي كفه عبير. كأنهما على موعد منذ ألف عام.

ما جفلت. ما ترددت.

مشيا صامتين حتى أبعدا. لما اطمأن لنجاتهما من الراصدين، تنهد.

- أخيرًا يا بنت الجن!

كانت حافية. كفها في كفه ناحل عظمي، لكنه دافئ. مدَّ يده يتحسس ظهرها وهما يسيران إلى بيته.

لو أراد تشبيهًا لقال إنها نعجة عجفاء.

جسدها نحيف. يتحسسه فلا يلمس بروزًا ولا يغوص في شحم. لكنها تشعل غلمته في الظلام وهو لا يراها.

- ما سرُّك يا فتاة؟

ناولتـه صمتها. لو جرَّ حماره من قلادته لنازعه قبل أن يطيع. أما عبير فتمشي معه لا مبالية. لو سار بها إلى بيته لمضت. ولو دفعها في بئر المسجد لهوت بلا صوت.

- ألا تخافين؟

يحبو صوتها الطفل.

- تقول أمي إن قلبي ميت.

يمدُّ يده يبحث عن ثديها الأيسر. ليمونة ناضجة، لا أكبر.

- قلبك هنا. يدق.

بلغـا بيته. دفعها بحنوٍّ بـين درفتي الباب المفتوح. دخـل خلفها. مرًّا بالفناء الواسع.

في الظلام، يبدو شبح المنزل هائلًا. ديوان خارجي، ومبنى بأربع غرف. مطبخ في الطرف البعيد من الفناء لا يبين لداخل. وباب جانبي صغير يؤدي إلى الزريبة والكنيف.

بنى له شـقيقه محمد سعيد الشـيخ هذا البيت منذ عشرة أعوام. ما إن جـاوز العشرين حتى برزت فكرة أنه أهل للزواج. لكنه جعل منزله محلًا دائمًا للسهر والخمر مع رفاقه الغاوين.

جلُّهم تزوج وحافظ على سهراته. أما هو فنهاره يتبع شقيقه حاج بشير، وليله في ونس العرقي مع الصحاب.

أين يجد وقتًا للزواج؟

لم يكُن مشـغولًا بالنساء. وفي سنوات عمره الواحدة والثلاثين جرَّب سبع نسوة لا أكثر. ثلاث منهن خدم. وأربع من فتيات القرية المغامرات، أو الطامحات في رضاه عساه يُقبِل على زواج من تشبعه.

ستكون عبير هذه الليلة ثامن تجارب عمره. ويشك أنه ربما كان ثامن تجاربها هذه الليلة فقط. الصبية لا تشبع، ولا ترد طالبًا.

الوقت صيف. وغرف بيته المبنية بالطوب شـديدة الحرارة. ولا وقت لفتح الشبابيك والأبواب.

جذب الصبية ناحية ديوان الرجال الخارجي. دخلا في عمًى. تحسس حتى وجد فراشًا مطويًا. مدَّه. دفع الصبية عليه.

صوت أنفاسه في الظلام كريح عاصف. تفوح منه الرغبة. يوشك أن يحترق فيُضيء المكان.

لا يرى الصبية. لكن وجودها وحده يغمره بالشبق كفيضان.

احتضنها. قبلها في نزق. حيثما انزلقت شفتاه لثم.

عبث بجسدها، وعبثت بهياجه.

لما طاش صوابه وأحس نفسـه يطير في الهواء ملامسًـا السـقف دفعته عنها فجأة.

لطمته الدهشة!

صرخ:

- أمجنونة أنتِ؟

في الظلام حبا صوتها الهش من قلة الاستخدام.

- قبل أن تفعل ما تريد، أطلب منك وعدًا.

بحث بيده عنها متوترًا.

- أي وعد يا ملعونة؟ تعالي هنا.

سـمع صوت حركتها فمدَّ يـده لكنها راغت. جمح بـه فرس الرغبة. صاح بلا تدبر:

- أعدك بأي شيء. بكل شيء. تعالي.

أمسكت كفه في الظلام. تتحرك بثقة كهرة ترى!

- عِدني أن تكون شفيعي لدى حاجة الرضية.

ركب الجنون. لا مجال للتراجع.

وعدها.

فاكتمل عقد نسائه ثمانية.

* * *

غمر النهار حجر نارتي.

ثلاثاء متوتر منذ ليلته. بكَّر الأهالي زائرين العيادة للاطمئنان على عبد الرازق. عاد الرجل من منتصف درب الهلاك، بعد ليلة من التشنج والحمى والقيء. سهر عليه شقرب يمزج طبَّه بعلاج حجر العقرب الفحمي.

تكدس الأهالي أمام العيادة رجالًا ونساءً وأطفالًا. ستعيش هذه الحكاية طويلًا وتمتزج بالونس. "ليلة حنة عبد الحفيظ البدري لُدِغ عبد الرازق". ستتبدل الحكاية وتتغير. تزاوجها تفاصيل متخيلة، وتفارقها حقائق حدثت. في الونس لا يهم ما حدث. إنما يهم أن تكون الحكاية ممتعة حين تُروى.

دخل الناس في مجموعات. كلما خرجت مجموعة خلفتها أختها.

- كفَّارة يا راجل.

- راح الشر. الله شافك.

- ربنا يواليك بالعافية يا زول. شدّ حيلك.

ويستغل بعضهم وجوده في العيادة فيسأل أحمد شقرب عن علاج لوجع ما.

حين دخلت مجموعة من النسوة عانقن زوجتي عبد الرازق وبكين.

- الله يكتب سلامته.

- يقوم ليكم بالعافية إن شاء الله.

- أجر وعافية.

تجرأت نور الشام، فسألت بفضول:

- عبد الرازق! سلامة إن شاء الله. أين لدغتك العقرب؟

صمت الرجال وتبادلوا النظرات الباسمة.

ألحّت المرأة باهتمام صادق:

- أين لدغتك العقرب؟

يجيب عبد الرازق باقتضاب:

- خلف الأزيار.

تتدخل امرأة أخرى موضحة ما تظنه سوء فهم:

- أيوه! نعرف. لكن أين؟

يكتم سليمان الحواتي ضحكته. ويؤكد عبد الرازق:

- خلف الأزيار.

تكرر نور الشام محتارة:

- نعرف. أسأل عن أين لدغتك؟

ينفجر ضحك سليمان إذ غلبه. ويدير شقرب وجهه للحائط ليخفي ضحكه. الزوجتان تطرقان خجلًا.

يصيح عبد الرازق بحدة ناهرًا زوج حاج بشير:

- يا امرأة! قلت لك خلف الأزيار. خلاص!

تنكمش النسوة أمام صياحه. يتقاربن كأنما يحمين بعضهن. يعتذرن حائرات.

- الله يكتب سلامتك. لا تغضب.

يخرجن حاملات استفهامهن ولومهن للرجل على عصبيته.

تنتقل الجموع في مواكب عدة بعد واجب عيادة الملدوغ قاصدة واجب بيت العُرس.

يتبادل الرجال همسًا حكاية سؤال **نور الشام** ويضحكون في تكتم. تحاول النسوة استنتاج مكان اللدغ، فتجزم إحداهن أن **عبد الرازق** أصابه ما أصاب أحد أصهاره قديمًا في قرية **الكونج** القريبة، إذ لدغته عقرب في عضوه الذكري ومات.

تضرب **نور الشام** على صدرها فزعة.

- واخجلتي!

تلوم نفسها على جراءة سؤالها. تتمنى لو استنطقت زوجها بدلًا من هذه الفضيحة. لكن **حاج بشير** لم يرجع إلى البيت إلا عند الفجر، وغادر عجلًا مع الشروق قاصدًا بيت أخيه. ما كان لديها وقت للسؤال.

سيُخلِّد الونس سؤال **نور الشام**. وكلما ذُكِر زواج **عبد الحفيظ البدري** سيحكي الرجال عن **عبد الرازق** الذي لدغته عقرب "خلف الأزيار".

* * *

يجتمع الشقيقان على شاي الصباح في ديوان **محمد سعيد الشيخ**.

متباينان بنحول **حاج بشير** الذي اعتراه منذ شهور وطول قامته، وبدانة **الشيخ محمد**. لا يبلغ فرق العمر بينهما عامين. لكن تراتيبية الاحترام بينهما شديدة التطرف. يُبجِّل **حاج بشير** شقيقه الأكبر أشد تبجيل. وعلى علاقتهما تلك شبَّ **الرشيد** الذي يصغرهما بعقدين كاملين. رعياه كأبوين، ويُجِلُّهما كمريد مفتون.

لا يكاد محمد سعيد الشيخ يقضي أمرًا في القرية إلا بمشورة حاج بشير. سرقت منه المدينة أولاده الثلاثة، وابتلعتهم الجامعات. فما بقي له من رفيق غير شقيقه. أمين سره وعمود اتكاله.

يحس محمد سعيد الشيخ بالخطر.

البلاد تتغير. لم يكُن أول حكم عسكري. بعد ذهاب الإنجليز بسنتين أخذ العسكر السلطة. ثم أُجبِروا على تركها. لم تمُر ست سنوات حتى عادوا مرة أخرى. يشعر أنها مرة مختلفة. يتابع الراديو، وتأتيه التلغرافات من الخرطوم. هؤلاء ليسوا ضباطًا عجائز كمَن سبقهم. إنهم شباب متحمسون يتكلمون عن الشيوعية والاشتراكية. هذا يومهم الثالث في السلطة، لكنه يعرف أن البلاد ستتغير إلى الأبد.

لا يفضح مخاوفه لأحد. إن حدثوه عن الانقلاب أظهر استهانةً بالأمر.

- الانقلابات والعسكر والسياسة هناك في الخرطوم. هنا في حجر نارتي لا يهمنا إلا الجازولين للزراعة. فليفعلوا ما شاؤوا هناك.

لكنه مع شقيقه لا يخفي شيئًا.

- هؤلاء أتوا ليبقوا يا بشير. ونحن، العمد والأعيان وكبار البلد، لن يرونا إلا خصومًا.

يرشف حاج بشير شاي اللبن. يمتلئ برائحته الشهية. يقول:

- تظن أنهم سينزعون منَّا السلطة لصالح بيت البدري؟

- الأمر أكبر من حجر نارتي. أكبر من العمودية وشياخة الخط. إنهم يريدون تغيير كل شيء. شيطان السلطة وفورة الشباب ستغريهم بتغيير كل شيء. بعد كل تلغرافات التأييد يطلبون الآن خروج الناس لمظاهرات تأييد. يريدون إظهار الولاء الكامل والطاعة. لا أحد يطلب ذلك إلا إن كانت له خطط كبيرة.

- الأمور لا تدوم على حال. سيذهبون كما أتوا.

ينظر إليه محمد سعيد الشيخ طويلًا. يتأمل هزال جسده والإعياء البادي عليه. شقيقه مريض بلا جدال، لكنه يكابر. ربما المرض ما يعميه عن رؤية الخطر القادم.

- إنهم فيضان يا بشير. فيضان سيجرف كل شيء. سنغرق جميعًا. ستغرق كل البلاد. لا أشعر أن هناك مهربًا لنا.

- ربما أنت تبالغ في تقدير قوتهم يا شيخ.

يصمت محمد سعيد الشيخ. يتمنى لو كان مخطئًا.

- سنرى.

ثم يغير مجرى الحديث فجأة.

- ستدفنون جنازة الفتاة اليوم؟

- لم يعرف أحد من أين أتت. وهي لا تتحمل أكثر من ذلك. سأرسل الرشيد وسليمان لدفنها بعد صلاة الظهر.

- جنازة لا يعرف أحد من أين أتت. ومصير مجهول لبلد. يا لها من أيام.

- هي أيام مفترجة يا شيخ. غدًا المولد النبوي، ويوم الخميس سيصل القادمون من الخرطوم لحضور العُرس. فلنساير الأمور، واحدة فواحدة.

- ليس بيدنا إلا ذلك.

يداعب عصاه.

- هل ذكر لك الرشيد الزواج قط؟

يبتسم حاج بشير.

- بل يهرب إن ذكرته له. لكنه بعد شابًا. فليسعد بطيشه قليلًا.

- بلغ الثلاثين! في عمره كان لديَّ ولدان، وكنت أنت متزوجًا المرحومة.

- الزمان غير الزمان يا شيخ.

- ليته ما كان.

- سنة الحياة.

- لا يخيفني إلا ذلك. لو كان تغير الزمان شيئًا نادرًا لما أزعجني. لكنها سنة الحياة. فهو حادث بلا ريب.

- أمر الله. إن صبرنا جبرنا، وأمر الله نافذ. وإن ما صبرنا كفرنا، وأمر الله نافذ.

- ونعم بالله. على البركة. أنجز ما خططته لليوم. ولنتناول الإفطار في بيت العُرس، ونرتب لليلة المولد غدًا.

- باذن الله.

ينهض حاج بشير بمشقة.

يرمقه شقيقه مشفقًا.

- راعِ صحتك يا بشير.

يبتسم.

- أمر الله نافذ يا شيخ.

ينقبض قلب محمد سعيد الشيخ. لكنه يمسك ردَّه. يرمي بصره بعيدًا ليرى مخاوفه الأخرى تلوِّح له.

يؤمن أن أيام الشر قادمة. وأن هذه البلاد -بلا شك- غارقة.

* * *

" لا شيء يكفي شر العسكر. لكنه مبلغ حيلتنا"

* * *

لما مات العمدة **سعيد الناير** في مطلع عام 1939 لم يكُن بقي لـ **محمد سعيد الشيخ** غير عام من الدراسة في قسم المعلمين بكلية غردون.

التلغراف الذي وصله لم يكُن خبر موت أبيه، بل كان أمرًا أسريًا بسرعة السفر إلى **حجر نارتي** لتولي العمودية.

احتاج إلى برهة حتى يدرك معنى الرسالة. "احضر فورًا. الإنجليز سيعطون العمودية للـ بدري. حضورك عاجلًا لترث حقك".

هكذا عرف أن أباه مات.

لما نزل من الباخرة كان أعمامه الخمسة في انتظاره. ورسائل الانجليز تتابع تأمر بحسم قرار العمودية.

وجد السلطة في انتظاره، والزوجة! كانت أيامًا مضطربة. ترك وراءه جماعات الخريجين يكونون ناديًا سياسيًا يجمعهم للمطالبة باستقلال البلاد. والعالم يغلي في انتظار حرب تلوِّح من بعيد. أدار ظهره لكل ذلك وعاد إلى **حجر نارتي** ليصبح عمدة ويتزوج **الرضية** بنت عمه.

المفاوضات مع الإنجليز، ومنافحة مؤامرات بيت **البدري**، واستلام السلطة، والزواج، ابتلعته في جوفها. لم يزُر قبر والده إلا بعد أسابيع. قبل ولادة شقيقه **الرشيد** بأيام.

حين يتذكر تلك الأيام بعد مرور ثلاثين عامًا يشعر بشيء من الحنين، وكثير من الندم.

لماذا لم يرفض ترك الدراسة؟ لماذا لم يدَع العمودية لبيت البدري أو لشقيقه المشغوف بحبٍّ امرأة متزوجة؟ لماذا تزوج الرضية كأنه فتاة لا رأي لها؟

لم يطلب بنت عمه، ولا هي قبلته. أمروهما بالزواج، فتزوجا.

انتظروا منهما الإنجاب، فأنجبا.

بعد عامين فقط من عودته كان قد تورط تمامًا في حجر نارتي. عمدة، وزوج، وأب. بدت حياته في الخرطوم ودراسته على يد المعلمين الإنجليز وانشغاله بالسياسة والاستقلال ومحاولات كتابة الشعر خيالًا. حلم في منام شخص آخر.

انتهى حلمه أن يكون شاعرًا في العاصمة وتلاشى مستقبله كأفندي. المستقبل الذي أصر عليه المأمور الأنجليزي وأقنع به والده. أبناء الأكابر والأعيان يجب أن يدرسوا ويكونوا أفندية الإدارة السودانية للبلاد. خلع ذلك المستقبل وارتدى الجلباب والعباءة وعمامة ضخمة.

أعجز عن قول لا؟

كان يستمع لتعليمات أعمامه ويحس أن عليه واجبًا بالطاعة. ليس من حقه أن يرفض. لا يليق به أن يرفض. الرفض خيانة لأهله ولإرثه ولكل ما تربى عليه.

جعلوه عمدة، فكان.

زوَّجوه، فتزوج.

حمَّلوه السلطة، فوضعها على كتفه ورمح.

لم يُظهر ضعفًا، لكن ابنة عمه الجبارة قرأت خضوعه في أيامها الأولى.

الرضية ذات بأس وطبع شرس. كأنها ظل لجدتها العافية. اعتبرت زواجها تكليفًا أسريًا واجبًا. قامت به مخلصة بتطرف. نُحِتت من ذات الجبل الذي نُحِت منه أعمامه. التقاليد، والأسرة، والسلطة هم كل شيء.

رأته الرضية يُؤمَر فيطيع مستكينًا. لا يبدو مخلصًا فخورًا. لا يبادر، إنما يمشي في ركاب أهله.

لم تقبل ذلك منه. عدَّته ضعفًا. ولما عجزت عن جعله مؤمنًا مثلها حررت نفسها من خضوع الزوجة ونهضت بعبءٍ كان أولى به.

حُمِّل الأمانة، فحملها. لكن الرضية من اعتنقتها وذبَّت عنها ونافحت لثلاثين عامًا تحميها.

كانت كالفيضان، والهبوب، وحرائق النخيل. قوة كاسحة تحمي التراث وسلطة بيت الناير.

تحتقر العبيد والإماء. تروض الزوجة الناشز. تُحرِّض الرجال. تختن الصبيان والبنات. تُقرِّع الشباب العابثين.

إن كانت سنة الحياة التغيير، فـ **الرضية** كانت جبل البركل الذي يتحدى السنة.

اليوم يتمنى **محمد سعيد** الشيخ لو كان مثلها، لعله يقدر أن ينافح ما سيأتي.

* * *

بعد الزوال بشيء يسير دفن **الرشيد** و**سليمان** الحواتي جثمان الغريقة.

سحباها بمركب **سليمان** إلى مسافة غير بعيدة. حفرا في الطمي على جانب بحر النيل واستودعا الجثمان هناك.

لما فرغا سمعا صوت **فاطمة** أم الصبية تئن بصوت كأنه جدار صخر يتشقق.

ها هي جثة أخرى تُدفَن، وما دُفِنت سعاد.

* * *

"السمح جا.. السمح جا"

هكذا يسمع الأهالي نغمة آلة تنبيه الباص السفري حين يدخل به سائقه محجوب البلد.

يُنغِّم الصوت ويُرقِّصه. يخرج الصبيان يعدون خلفه ويغنون معه. "السمح جا.. السمح جا".

في موعده بدقة يصل محجوب عصر الخميس. هو سائق منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة. تستغرق الرحلة من العاصمة يومين ونصف يوم في قلب الصحراء. سفر طويل يشق الخلاء العظيم. يجري الباص على الرمل برشاقة، ثم يصيبه النحس فينغرس فيه بغشم. ينزل الركَّاب. يحفرون الأرض، يدفعون الباص، ثم يعدون خلفه ليركبوه وهو يجاهد ليخرج إطاراته من فخِّ الرمال.

لما ينزلون في محطته الأخيرة عند مسجد القرية يبدون متشابهين كتوائم بائسة. يكسوهم الغبار فلا تستبين لهم ملامح. رؤوسهم تحمل التراب كأنهم نهضوا توًا من القبور.

تطفئ رحلة اليومين ونصف يوم كل أثر لنعماء المدينة.

ينزلون بوجوه شائهة، وشفاه مشققة، وأعين محمرة. لكنهم -كل الآتين في كل وقت ومناسبة- يؤكدون أن الوصول إلى البلد يستحق كل ما عانوه. ويتزيَّد بعضهم مؤكدًا أن الرحلة الشاقة طهرتهم من دخن المدينة لينعموا بفردوس القرية.

يتلقاهم المستقبلون بالماء للاغتسال، والأحضان للترحاب.

عناق يطول، ودموع فرِحة، وسلام يتكرر.

- حمد لله على سلامة الوصول.

- بركة بالشوفة.

- الحمد لله شفناكم طيبين.

- الله يسلمك. الله يبارك فيك.

تجمعت القرية كلها فما تخلف أحد. يستقبلون الآتين إلى العُرس عبر الصحراء. حُمِلت الحقائب كيفما اتفق. كل الأبواب مشرعة للآتين وكل البيوت منزل. ولما ينتهي المسافر لمستقره يُرسَل الصبيان للبحث عن الحقائب:

حقيبة حمراء تخرج من بيت وتدخل آخر. كرتونة عليها اسم صاحبها بخط كبير تُحمَل من منزل إلى منزل. جوال أبيض من البلاستيك يحمله صبي يجري به إلى حيث استقر مالكه.

قرب صلاة المغرب، يحصل كل قادم على أغراضه. وبعد الاستحمام، تظهر ملامح الآتين على ضوء الفوانيس.

يدور الناس على البيوت مرة أخرى ليرحبوا بهم. كأنما يستوثقون من هوية من التقوا بعدما نفضوا عنهم التراب وأزالوا الغبرة.

يؤكدون مرة أخرى:

- حمد لله على سلامة الوصول.

- بركة بالشوفة.

- الحمد لله شفناكم طيبين.

- الله يسلمك. الله يبارك فيك.

في غير وقت العُرس كان الفطير باللبن هو ما يُقدَّم عشاءً للآتين. لكنها مناسبة، وعُقب احتفال مولد. فكان اللحم المشوي والثريد جاهزًا يطلب آكليه.

تنقلب القرية إلى مأدبة مفتوحة. وينتظر المغنون المستقدمون من أنحاء المنطقة والقرى المجاورة انتهاء العشاء لتبدأ ليلة الحنة الكبيرة.

الآتون ينتسبون للقرية كلها. لا فرق في المناسبات بين بيت البدري وبين بيت الناير وبين غيرهما من البيوت والأهالي.

في المناسبات تعود حجر نارتي كلها أسرة واحدة من نسل واحد كما بدأت قبل مئات السنين.

يسأل محمد سعيد الشيخ بعض الأفندية عن أخبار العاصمة.

- الدنيا مقلوبة.

- اعتقالات كل يوم. بيانات من مجلس قيادة الثورة. لكن الناس يظنون خيرًا.

- هذا البلد يحتاج إلى الشدة.

- الأنصار يعدّون لشيء ما. لن تمر الأمور بسلاسة. لكن خلاص العسكر والشيوعيون والقوميون ركبوا البلد.

مع احتشاد الجميع في فناء بيت الحاج حسين البدري، تئز سماعات الميكرفون المخروطية. يسميها الأهالي "آذن الفيل". تصدر صفيرًا مزعجًا. ثم يرن نغم الطنبور يصحبه رتيب دقات الطبل.

يرتفع صوت المغني:

"الزول الوسيم / في طبعه دايمًا هادي

من أوصافه قول أسكرني / هات يا شادي

من حور العيون يحتار غزال الوادي

والخد كالزهور / تلقاه دايمًا نادي"

حينها فقط تفض فايت ندو مستغلقات معتَّق خمرها المكنون. وتدور الكؤوس تحفها الزغاريد.

* * *

ليلة كهذه من أقسى الليالي على حاجة الرضية.

ليلة تتحدى تطرفها الأخلاقي، وتجبرها على شيء من التسامح مع "المساخر وقلة الأدب" كما تسميها. خمر ورقص وصبيان يصطادون الفتيات إلى الخلاء ومظلمات الأماكن.

كانت عادةً ما تهرب بالانزواء في المطبخ والتشديد في الإشراف على الخدمة ومطاردة الإماء. لكنها الليلة كانت سعيدة بالخروج من مخبئها لتفخر بـ شاهيناز أمام الجميع.

تركت تزمتها خلفها وخرجت مباهية.

طافت بها على النساء. زغردت لها لما حاولت تقليد رقص فتيات القرية على نغم الطنبور. نظرت شذرًا إلى الفتيان الذين حاول بعضهم الصفير لما رأوا الفتاة، فماتت الأصوات في شفاههم.

كانت فخورة بها، وتغفر لها زهو صباها ودلال عمرها.

حمل باص محجوب من العاصمة فاكهة بيت الناير.

لما نزلت بسنوات عمرها السبعة عشر من الباص كانت مهندمة أنيقة كأنما تزينت لتوها. بدت ملونة وسط غبرة الآتين.

شاهيناز بنت شقيق حاجة الرضية. وُلِدت في العاصمة وعاشت بها. لم تعرف القرية إلا مزارًا في المناسبات.

إذ تأتي في الأعياد، يتطوع كل الفتيان لخدمتها. يتسلقون لأجلها النخيل ويسرقون البلح الرُطَب. يسطون على جنائن المانجو ويقطفون أجود الثمار.

ما كانت باهرة الجمال. بل لعلها تشبه عمتها الرضية في الملامح الحادة. لكن دعة المدينة كستها ألقًا. منذ طفولتها تلمع برَّاقة كأنها كوكب الزُّهرة. ثيابها منشَّاة نظيفة. سلوكها مهذب في رقي. وتنظر إلى العالم، إذا نظرت، كأميرة صغيرة.

مدللة تحبها عمتها، ويحبها لذلك كل بيت الناير.

وكانت تلك أولى لعنات عبير.

منذ ظهر حمل فايت ندو من تلك الليلة الصيفية مع عبد الحفيظ تمنت أن تُرزَق بنتًا.

كانت تتهرَّب من حاجة الرضية. تجهد ألا تكتشف المرأة المتزمتة حملها. إلا أن قلبها تعلق بالطفلة شاهيناز.

ما جاوزت الرابعة من عمرها، تزور حجر نارتي فتهش لها كل البيوت. يحملها زوج عمتها محمد سعيد الشيخ، يرفعها عاليًا وينشد فيها من شعره:

"طربتُ وهزني أي اهتزازُ / جمالٌ في عيونك شاهينازُ"

تفر فايت ندو من عيني حاجة الرضية، لكنها ترقب الصبية. وعدت نفسها إن رُزِقت بالفتاة التي تريد لتسمينها شاهيناز، ولتكونن طبيبة.

خبأت ذلك الوعد كما خبأت حملها.

ثم لما فضحها بطنها ونميمة القرية، عرفت حاجة الرضية أن "خادم حوش العمدة حامل".

ماجت الرضية كسماء تمور بالشهب.

أمسكت فايت ندو من شعرها الخشن القصير وقتلتها ضربًا. سحلتها على الأرض وهي تصرخ:

- يا فاجرة. يا عار الخدم، يا نسل الزنا. بنت حرام وتبتلينا بمولود حرام؟

صفعتها، وركلتها، وعضتها غيظًا.

تكوَّرت فايت ندو على نفسها. لا تقاوم، لكنها تحمي بطنها بيديها.

حاولت حاجة الرضية أن تركل حملها مرتين. لكن **فايت ندو** تلقت الركلتين على ساعديها المتقاطعين أمام بطنها المكور.

صاحت حاجة **الرضية** في جنون:

- ستنزلين هذا الحمل النجِس.

توسلت **فايت ندو** تطلب الرحمة. وتُشفِّع فيها **محمد سعيد** الشيخ وحاج بشير وزوجه سكينة بنت البدري وكل من له خاطر لدى **الرضية**.

لانت العجوز بعدما كانت أقسمت ألا يُولَد في **حجر** نارتي من حوش العمدة مولود حرام مرة أخرى.

مبرة لقسمها قال حاج بشير:

- نرسلها إلى أختها دهب في الدبة. تلد هناك وتبر يمينك.

قبلت حاجة **الرضية** على مضض. هكذا لن يُولَد مولود الحرام في حجر نارتي. لكنها استغلت حمل **فايت ندو** لتشن حملة متطرفة على كل الإماء والفتيات المغامرات في القرية.

تتبعتهن وترصدتهن حتى كان طالب المتعة يخشى أن تمسك به حاجة الرضية، ونباح الكلاب أن يفضحه.

أُرسِلت **فايت ندو** جنوبًا إلى أختها. بقيت معها لأكثر من شهرين. وحين رجعت كانت تحمل وليدتها السوداء وشهادة ميلاد تقول إن اسمها **شاهيناز**!

حكايات القرية لا تشرح بدقة لما أقدمت فايت ندو على تلك الفعلة الحمقاء كأنها لا تعرف العواقب.

بعض النسوة يزعمن أنها شديدة الإعجاب ببنت شقيق حاجة الرضية، وتمنت لوليدتها حظًا كحظها فسمتها تيمنًا. وبعضهن يقسمن أنها فعلت ذلك لتغيظ العجوز. وأخريات يعزين السبب إلى غباء الإماء الطبيعي.

أيًا كان السبب فإن عودة فايت ندو بطفلتها شاهيناز فجَّرت القرية.

لو استيقظت حجر نارتي فوجدت بحر النيل يجري جنوبًا، أو طارت قباب الشيوخ الوراريق في السماء، لما ترك ذلك أثرًا كزلزال التسمية.

أقسمت حاجة الرضية لتذبحن المولودة.

وأمسكها النسوة وهي تنشب مخالبها في فايت ندو لتنزع عنها طفلتها.

- يا حاجة صلي على النبي.

- استهدي بالله يا حاجة الرضية.

- استغفري والعني إبليس.

ما لعنته الرضية، بل أقسمت به وبالسيد الحسن الميرغني وبالشيوخ الوراريق وقبر والدها وثدي أمها لتذبحنها.

وهي تصارع النساء في حجرة فايت ندو لتفلت وتفترس الأمة وبنتها وقع

الظل عليهم. سمعوا صوت **محمد سعيد الشيخ** يهدر على باب الحجرة:

- ماذا يحدث هنا؟

فرَّت **فايت ندو** محتضنة طفلتها إلى ركن بعيد. وانكمش النسوة إذ ميَّزن رنة الغضب في صوت الرجل المهاب.

وحدها **الرضية** وقفت في وسط الحجرة تنهج. صوت نفسها كدقات ماكينة ري المشروع. كانت تتميز سخطًا ونقمة حتى تضيء عيناها المحمرتان الحجرة. لكنها لما نظرت في وجه زوجها المكفهر تجمدت.

تبادلا نظرات العبس لوهلة.

سألها بحدة لم تعهدها:

- **الرضية**! ماذا هناك؟

تصارعت نظراتهما، ثم أجابت المرأة بصوت مخنوق:

- اسأل الفاجرة عن اسم بنتها.

حوَّل **محمد سعيد الشيخ** بصره إلى **فايت ندو**. تحترق خوفًا في ركنها وتسيل دموعها. سألها فأجابت. بُهِت الرجل. اهتز وجهه المكفهر.

هل جُنَّت الخادم؟

ما وجدت في كل أسماء الدنيا إلا هذا؟

لكنه تماسك. أطرق برأسه. تمتم:

- حمد لله على سلامتك.

ثم أشار لزوجه:

- تعالي. سنتكلم عن هذا بلا فضائح.

رمت الرضية فايت ندو بلهيب نظراتها. وأولت النسوة المنكمشات عين وعيد، ثم خرجت خلف رجلها.

وهما يسيران إلى بيت العمدة كانت الفضيحة تغادر حجرة فايت ندو لتطوف حجر نارتي. طرقت كل البيوت، وبلغت كل الأهالي.

اختبأ العقلاء في بيوتهم عارفين أن التعرض لحنق الرضية الآن جنون. وخرج بعض المتهورين قاصدين حجرة فايت ندو ليقفوا على أصل الفضيحة.

مشا الزوجان متجهمان بلا كلام. دخلا بيتهما فانزوت الإماء وبنات العرب اللائي يخدمن بعيدًا عن العاصفة. لكن محمد سعيد الشيخ نهرهن:

- اخرجن كلكن. لا أريد واحدة في البيت.

فزعن هاربات يطلبن السلامة.

نحو ثمانية عشر عامًا من الزواج لم تعرف فيهن حاجة الرضية أن زوجها يخبئ تلك القدرة على الغضب.

أمرها أن تقعد. أطاعت بينما تمشّى يُنفِّس عن سخطه ويفكر.

حاولت أن تكلمه، لكنه أشار إليها فصمتت.

استعاذ بالله أكثر من مرة. بحث داخله عن شخصه القديم الهادئ. أعاد ترميم الطين الذي تساقط عنه كاشفًا سخطًا وحنقًا.

لما برد حرُّ قلبه عاد إلى زوجه. جلس إليها وحدثها بصوته القديم وطبعه اللين.

- يا حاجة! **فايت ندو** مخطئة، ما في كلام. لكن الغضب يعميك.

هتفت بحدة:

- الخادم الزانية تتحداني!

اربدَّ وجهه لحدتها. لكنه شكم نفسه ورد:

- ما حصل حصل. لا يمكن أن يتحدث الناس أن **الرضية** بنت **علي الناير** تتشاجر مع خادم! لا يليق بك ولا بنا.

- فأقبل أن تسمي بنتها على **شاهيناز** بنت أخي؟ أهذا ما ترضاه لي؟

حايلها وطيّب خاطرها. حاول جهده أن يثنيها. لكن المرأة كانت كطود مغروس في الأرض. بعد لأي توافقا أن تترك له التصرف. ولا تضع رأسها برأس **فايت ندو**.

أرسل في طلب الأمة فجاءت واجفة.

قرعها بحديث هيّن أمام زوجه المتلمظة غيظًا للدم. ثم أخذ منها شهادة الميلاد التي عليه اسم شاهيناز، ومزقها.

تمزق معها قلب فايت ندو وهي ترى أول أحلامها لطفلتها يُنسف كاللاشيء.

أمرها محمد سعيد الشيخ أن ترجع إلى الدبة فتستخرج شهادة جديدة باسم جديد. قال لها:

- اختاري اسمًا يليق يا فايت ندو. سمها عز القوم على اسم امك.

اطرقت الأمة ولم تجب.

- أنا أقترح ولا آمرك. فقط لا تكرري خطأك. الأسماء كثيرة فاختاري ما تحبي.

فكّر أن فايت ندو لو أرادت أن تكيد زوجه فستسمي البنت هذه المرة الرضية. كاد يضحك من هذا الخاطر. لكنه كتمه سريعًا واحتفظ بالسمت الهادئ المتحفظ.

في الليلة التي سبقت عودة فايت ندو لمدينة الدبة لتغيير اسم طفلتها تدخلت سكينة بنت البدري كغيث ينزل ساعة جفاف.

توسلت سلفتها وراضتها حتى رضيت. طلبت اذنها أن تتدخل. قالت لها الرضية متصنعة غضبًا ما عاد هناك:

- كل هذا من تحت رأس أخيك عبد الحفيظ. فعل فعلته ونحمل نحن طينها.

داعبتها سكينة واعتذرت. ذكرتها:

- يا ست البلد والناس إنما الخراب طبع الرجال. فما حيلتنا نحن النساء.

ابتسمت الرضية رغمًا عنها.

- صدقتِ. الرجال جزم، لكن الحفا لا يطاق.

ضحكت سكينة ضحكة رائقة كوشوشة النسيم بين النخيل بعد العصر.

في غدها سافرت سكينة بنت البدري، زوج الحاج بشير شقيق شيخ الخط وابن العمدة وحفيد العمدة، بنفسها مع فايت ندو الأمة المنكسرة إلى مدينة الدبة. نزلت معها على اختها وزين الدهب. وسمّت الطفلة عبير على ابنة عبدالرحمن البدري شقيقها الموظف في ميناء بورتسودان. وتكفلت بعقيقتها.

من كان مثل سكينة بنت البدري؟

* * *

"رحمها الله. كانت والله ملاكًا. ما عرفنا مثلها، ولن نعرف"

* * *

وشاهيناز - ست الأسم - تشغل ساحة الرقص وتتباهى بها عمتها، كانت عبير تخرج من العيادة مختبئة بحضن الليل.

سرّح أحمد شقرب عبدالرزاق إلى بيته قبلما يتكامل شفاؤه لتخلو العيادة له. اصطاد عبير عند موقف باص محجوب في زحمة المستقبلين والآتين. أشار إليها فانفلتت من الحشود وتبعته.

صادفها بعض الصبية. ناوشوها وتحرشوا بها. مرت صامتة كظل.

لّما تعرّت له تأمل شقرب جسدها النحيل. عظامها بارزة. ضامرة، جلدها أغبش، لا يخلو من قشف. مابها لتكون فاتنة هكذا؟

سألها:

- هل أنتِ ساحرة؟

هزّت رأسها نافية.

- كيف تفعلين هذا؟

تنظر إليه بعينيها الطفلتين. صبية في الثالثة عشر من عمرها. عارية أمامه، يابسة كسعفة.

تفوح اثارة كحرارة جمر في ليل شتوي.

يرسل نفسًا عميقًا. لا يفهم، ولعله لن يفهم. لكنه لا يهتم.

يمشي إليها. يعتليها، فتحمله إلى السماوات.

* * *

مثلما أتى الغجر بلا موعد، غادروا بلا موعد.

ككرةٍ من القش تحملها الريح ينتقلون من مكان إلى مكان. تركوا منزلهم أسفل النخيل في ليلة المولد. دخلوا القرية فطعموا وشربوا وجاثوا في البيوت يتسولون.

ينهرهم أغلب الناس ويزجرونهم.

- بدلًا من التسوُّل، هلَّا عملتم؟

يجيب الغجر، رجالهم ونساؤهم، بصوتهم الغليظ الممطوط:

- الله يسامح جدنا. هو الذي أوصانا ألا نعمل.

لا يعرف أحد، ربما حتى الغجر أنفسهم، من هو هذا الجد. لكنه جوابهم الدائم لرفضهم الخدمة والعمل. يتحجَّجون بجدٍّ قديم أوصاهم ألا يعملوا

أبدًا، وألا يسكنوا مكانًا واحدًا. الوصيتان هما ميراث الغجر الوحيد. لذلك يتنقلون ويتسولون. وعلى غفلة من الأهالي يسرقون. ليسو لصوصًا، لكنهم كالطير؛ لا يؤمن بملكية المزارع للثمرة الناضجة. ما وجدوه أخذوه. وما تمنَّوه تسولوه. ثم يحملون أشلاء حاجياتهم ويرتحلون.

في صباح الجمعة، شاهدهم الأهالي يغادرون في صفٍّ طويل. يمشون على أرجلهم جنوبًا. ربما يتوقفون في قريش بابا وربما يتجاوزونها. أينما رمتهم الريح نزلوا.

يرحلون تاركين خلفهم احتقارًا وارتياحًا، خصوصًا عند آل البدري الذين ينزل الغجر بأرضهم كلما أتوا. لا يبدلونها بغيرها. إنه الشرط القديم الذي آلت به هذه الأرض إلى آل البدري. الشرط الذي فرضه العمدة النابر الكبير، خضوعًا لأمر والدته العافية.

كانت تلك مكافئتها لأهل بهية في السنة التي حلُّوا فيها بـ حجر نارتي وقالوا إنها ماتت قبل شهور.

حزنت العافية على المرأة التي عرفتها لسنين. وأثقل قلبها دين بهية. فعزمت على أن تُكرم أهلها.

كان ابنها النابر يفاوض أحد آل البدري ليبيعه قطعة أرض. يرفع النابر ما يطلبه، ويخفض البدري ما يعرضه. ولما أوشك البدري أن يلين تدخلت

العافية. أجبرت ابنها أن يقبل بسعر أقل مما رفض في أول الأمر. لكن الأرض لا تُباع إلا مشروطة.

- ستكون منزلًا للغجر وقتما حلوا بـ حجر نارتي.

يتذمر آل البدري من الشرط غير المفهوم!

- مالنا وللغجر! فلينزلوا بأرضكم أو بأيٍّ مصيبة!

لكن العافية ترعد وتبرق.

تريد إكرام أهل بهية. لكنها ما كانت لتمنح الغجر منزلًا أبديًا في أرض أسرتها. ما يدريها ما يخبئ الزمان؟

كان الشرط عجيبًا. ووجده بعض آل البدري مهينًا. لكنهم ما كانوا ليفوتوا فرصة شراء أرض من العمدة الناير.

إن كان شرط نزول الغجر بالأرض مهينًا لهم، فإن بيع العمدة أرضًا لهم مُذل له.

استغلت العافية ذلك الحقد القديم وحققت رغبتها.

هكذا وفَّت دينها لـ بهية.

الدَّين الذي لا يوجد من يجزم بحقيقته إلا حكايات عز القوم عن أمها في خرفها.

تزعم الحكاية المشكوك فيها أن العروس العافية فوجئت بزوجها محمد الحسن يدخل عليها يحمل سوطًا.

هل كانت الليلة الثالثة وهي تنتظر في قرمصيصها، أم كانت بعد زمن كفَّت فيه عن الانتظار؟

لن نعرف ذلك، لكننا نعرف أن محمد الحسن نزل جَلدًا على العروس قبل أن تدرك ما يحدث.

صرخت وحاولت الهرب. لكنه طاردها. أمسك بها. رماها على الأرض. وضع قدمه على صدرها وواصل جلدها. كان وجهه محتقنًا بالرغبة. أنفاسه متلاحقة كأنما يعوم في بحر النيل معاكسًا التيار. كلما صرخت لمعت عيناه. جلدها حتى تمزق عنها ثوبها. جلدها حتى أدمى جسدها. ترك السوط شلوخًا دامية على جلدها، في ظهرها، وبطنها، وفخذيها، وساقيها.

ولما خارت قواها وتكومت على نفسها كخرقة بالية، غشيها محمد الحسن!

عرفت وتده. ووضع فيها عضوه الذي يشبه رجل سرير الخشب. كل ما حكته النسوة عن الرجال، بل أضخم.

كان ثائرًا مغتلمًا. غشيها كعاصفة. رهزت تحته وولولت.

بكت من الخوف، من المفاجأة، من الألم.

غشيها بقسوة كجملٍ يطأ ناقة. ورزمت كناقةٍ يعلوها جمل.

عرفت سرَّ زوجها. الخطوط الدامية على جسدها شرحت لها كل شيء. عرفت ما يثيره وما يُرغِّبه في النساء. فهمت فشله السابق. وخشيت نجاحه المقبل. هل تكون كل لياليها هكذا؟

لما قام عنها تركها مبعثرةً بالإهانة. ممزقةً من الألم. الصبية النحيفة المريضة ذات الستة عشر عامًا، هل تطيق هذه المعاشرة ما بقي لها من عمر؟

تحملتها ليلةً أخرى. ثم ليلة بعدها. ثم ليلة ثالثة. لكنها بعد أقل من شهر ما عاد بها جلد للصبر. لياليه الحميمة تركت على جسدها ندوبًا. تورَّمت كقربة ماء. وتحاشت الأسئلة الفضولية من النساء. صبرت حتى فرغ صبرها. قاومته بكلِّ عزمها. أمسكت يده التي تحمل السوط ونازعته عليه. عضَّت كفه. لكن ذلك أثاره أكثر. صفعها وركلها. ثبَّتها على الأرض ووضع قدمه على وجهها. بصق عليها وهوى بالسوط على صدرها. صرخت كأنها تُذبَح. بل كانت تُذبَح.

ما أضعف حيلتها وأضيق مخارجها.

إن استسلمت جلدها حتى يُستثار، وإن قاومته قاتلها حتى يُستثار.

كانت غريبةً عن القرية -كما تزعم بعض حكايات نسبها- فما كان لها معين ولا من تلجأ إليه.

هل تفر من زوجها وترجع إلى أهلها؟ أي عار ستحمله ما حييت! وأي عذاب ستعانيه إن بقيت!

بحثها عن حلٍّ هو ما دلّها على بهية.

جاء بها القدر إلى عتبة دارها.

طرقتها بهية الغجرية ذات ظهر صيفي. جاءت تتسول على عادة الغجر. نهرها الخدم لكنها ألحَّت في السؤال.

سيدة المنزل، **العافية**، رأت الغجرية التي تماثلها في الحجم. كانت أكبر منها عمرًا. ربما في العشرين. لكنها نحيلة ضئيلة مثلها. لونها أبيض يكسوه غبش وقشف. عيناها خضراوان كقطة. صوتها غليظ ممطوط بلا تعابير.

طرقت الفكرة **العافية** فجأة.

كانت -رغم صغر سنها وقلة خبرتها- ذات كبرياء. أنِفَت أن تطلب حلًا في القرية. كانت تعرف أن سرَّها لن تكتمه حرة أو أمة.

لو طلبت مساعدة، ستجدها منغمسةً في فضيحة. لو استعانت بخادم؛ فستطيعها لكنها ستفشي سرها. ستعرف حجر نارتي كلها ما يحب زوجها وما يفعل بها.

أما هذه الغجرية، الطائر المرتحل، المنبتة بلا جذور، فشأنها آخر.

هذه امرأة بلا روابط. لا تبقى في مكان. لا تحكي ولا تسامر.

نادتها **العافية**. سمح لها الخدم بالدخول على مضض. اختلت بها المرأة. ساومتها على أن تكون بديلتها.

حكايات **عز القوم** عن أمها كحكايات عجوز **ساب الزبيرية**. أقرب إلى الأساطير. لا يملك أحد التحقق منها. لكنها الحكايات الوحيدة التي تتداولها النميمة عن هذه الحادثة. الحكايات الوحيدة التي تُفسِّر علاقة الصداقة التي نشأت بين سيدة القرية **العافية** والغجرية **بهية**.

وككلِّ الحكايات، وكعادة الحكايات، لم يكن من المهم أن تكون حقيقية، المهم أن تكون ممتعة. وقد كانت.

تزعم **عز القوم** نقلًا عن أمها الأعجمية الخرفة أن **العافية** اجتمعت بزوجها **محمد الحسن**.

للمرة الأولى منذ شهور تطرق ما يفعله بها.

- حقك عليَّ كزوج واجب. لكني ما عُدت أطيق.

نظر إليها الرجل مدعيًا عدم الفهم. كان يفضل ألا يناقش ما يفعله. كان يظن زوجه لا تجرؤ على مناقشة ما يفعله. انها ابنة عوائل. كريمة كرام. ومثلها لا تناقش زوجها في الوطء. الخدم والإماء هن من يتحدثن عن هذه الأمور. أما الحرة بنت القبائل فلا تفعل. إنها تتلقى ما يفعله زوجها في صمت وتنجب.

- لا يمكنني أن أتحمَّل ذلك الشيء أكثر. ولا يمكنني أن أمتنع عنك. لذلك وجدت حلًا.

أخبرته بما فعلته. شجعته على القبول.

وجد الرجل مقترحها غريبًا. لوهلة خاف منها. زوجته تفكر وتفعل أشياء لا يفعلها النساء في **حجر نارتي**! لكن.. هو أيضًا يحب ويفعل أشياء لا يفعلها الرجال في **حجر نارتي**.

لعلهما يليقان ببعضهما.

سألها:

- ماذا عن الناس؟

- أيُّ ناس؟ الغجر صموتون كحجارة صلدة. لن يُفشى لنا سر.

تعمدت أن تقول "لنا". تعمدت أن تشعره أنهما معًا في القارب ذاته. إن غَرِقَ غَرِقَت. إن فُضِحَ فُضِحَت.

أمسكت كفَّه ونظرت في عينيه.

- لعلك ستُحب هذا. سنكون معًا. تفعل بها ما تشاء. كل ما تشتهي. ثم بعدها أكون أنا لك. تحت أمرك وطوع رغبتك.

- وهي! أتقبل؟

- رضيت بذلك مقابل ما أدفعه لها. هناك مشكلة واحدة!

- ما هي؟

- الغجر يأتون ويذهبون. لا يبقون في مكان واحد.

- وصية جدهم لهم بالترحال.

- نعم! ذلك يعني أن عليك بالصبر حين يرحلون. سننتظر معًا عودتهم كل بضعة أشهر. هل تقدر على الصبر؟

هل يقدر؟

لم يكن يعرف. لكن الفكرة كلها أثارته. تمكنت منه. والرجال إذا استُثيروا قالوا "نعم" لكل شيء، لأيِّ شيء.

في الليلة التالية كان هناك ثلاثة في الحجرة. محمد الحسن يحمل سوطه، والعافية في قرمصيصها يلمع جسدها بالدلكة، وبهية ببرودها وعينيها الخضراوين.

كانت البداية متعثرة. محمد الحسن كان متوترًا قلقًا. بينما العافية رابطة الجأش تدير كل شيء باقتدار. ساعدته على جلد الغجرية. بل حملت عنه السوط وجلدتها عنه مرات. داعبته وهو يركل بهية بقسوة. نهرتها تأمرها أن تتوجع بصوت. أجبرتها على الصراخ.

وحين بلغ محمد الحسن مبلغه رمى سوطه وقفز على امرأته.

كان ذلك أروع ما عرف في حياته. كان ذلك أشهى ما جرَّب في حياته.

منذ تلك الليلة، ولسنوات أتت، ظل محمد الحسن يتشارك المرأتين. واحدة تنعشه وتشعله. وواحدة تطفئ شوقه وتمتع وصوله.

* * *

استيقظت القرية كلها في وقت متأخر.

من سكروا بخمر فايت ندو أفاقوا قرب الظهيرة. ومن أُجهدوا بالرقص والمغنى استيقظوا بعد أن ارتفعت الشمس. والآتون من العاصمة بباص محجوب أدركهم فتور السفر حتى وقت الإفطار.

يتبادل المتقابلون ابتسامات محملة بالمغازي. يذكرون ليلة الأمس بتشويش. لكنهم يعرفون من استبد به السُّكر، ومن داهمه القيء، ومن تشاجر في غيبة الوعي، ومن رقصت بخلاعة، ومن اختفوا أزواجًا فجأة.

ليالي العُرس ليالي سرور تتجاوز القيود. لذلك يحب الأهالي ذكرها بصفة *"اللعب"*.

لكن مع طلوع النهار يعود كل شيء إلى أصله. يرجع التحفظ إلى مكانه. والمجاملات إلى حيث تنتمي. وتمشي الحكايات يحملها الونس سرًا.

يوم الجمعة يوم عقد القران.

على السكارى أن يغتسلوا من سُكرهم، والعابثين مع النساء من عبثهم،

والمرهقين من فتورهم ليدركوا صلاة الجمعة وعقد القران.

وعلى النسوة أن يخلعن دلال رقصهن، وبقايا زغاريدهن، وذكريات عبث من عبثت منهن ليعدوا مأدبة الزواج للضيوف بعد الصلاة.

مع أذان الجمعة الأول دبَّت الحياة في حجر نارتي كأنما ليلة الأمس لم تكن. ما بقي منها إلا نميمة خافتة.

هُرع الرجال إلى الاغتسال والنساء إلى المطابخ. ثم امتلأت الدروب بالجلابيب البيض والعمائم الضخمة قاصدةً المسجد.

جاء عبد الرازق يعرج بإصابته. داعبه بعض الناس بما أصابه "خلف الأزيار". كشَّر ولم يرحب بهزرهم.

عانى في القعود حتى لا يتكئ على جرحه. تغضَّن وجهه وأنَّ في خفوت.

اكتظ المسجد بالأهالي والآتين من العاصمة والقادمين من القرى المجاورة. همهمات خافتة تملأ المكان بالأزيز. كنحلٍ يرج خليته. سعال متقطع من صدر حاج بشير. حاله يسوء كل يوم.

لما استيقظ قرب الظهيرة تشجأ خمر فايت ندو حتى أوشك أن يقيء.

الصداع يعصف برأسه. وكل صوت كانفجار في جمجمته. يزعجه الضوء كأنما ألف شمس تقرع عينيه.

تذكر الليلة الماضية. مزاجهم ومشاكستهم وجدل السياسة. سكروا

كأنما الصحو لم يوجد في الدنيا. شربوا حتى ترنحت الحيطان وثقلت ثرثرة النجوم. خمر فايت ندو كانت ملتهبةً كجمر متقد. تركوا لأجلها الخمور المستوردة وغرقوا فيها. كانت حقًا "فايت ندو ووكر" كما أسموها. لا تُقارن بها خمور الخواجة.

استغفر ربَّه. اغتسل على عجل. ما أكل شيئًا. عاند فتوره وحمل نفسه إلى المسجد كرهًا.

ما زال يسعل دمًا. قرر أن يستشير أحمد شقرب بعد العقد.

لن يضرَّه السؤال. سيستمر في تناول السمن ودهن جسده بالزيت، ويُجرِّب ما ينصح به المساعد الطبي.

ارتقى الخطيب منبره.

من ورقة مكررة تلا على الحضور خطبةً سمعوها في أكثر من جمعة. لو كانوا أكثر انتباهًا لحفظوها غيبًا. لكنهم شاردون لا يكادون يعون ما يقول.

يسترد انتباههم فقط حين يذكر اسم النبي، فيتجاوب المكان بلا تركيز مغمغمًا "صلى الله عليه وسلَّم".

المسجد ضيق، تدفق حضوره خارجًا في باحته أسفل مظلة من القصب. له مئذنة غير مكتملة تنتظر بقية تبرعات الساكنين بالعاصمة.

تلفح حرارة مايو الحضور. يسيل عرقهم. ينزعون العمائم الضخمة ويمسحون العرق. يُلوِّحون بها لاقتناص نسمة هواء.

إذ تطول الخطبة يبدأ بعضهم في التنحنح. يحاول الخطيب التجاهل. تزداد النحنة. يرى من عُلوِّه الجلوس يتململون في أماكنهم. فيُضطَر إلى القراءة بسرعة. ختم خطبته، ثم صلى بهم بشيءٍ من سورة "عبس وتولى" في الركعة الأولى، ثم سورة "العصر" في الركعة الثانية.

حين سلَّم من الصلاة تنهد الحضور بلا خجل.

تمعَّر وجه الخطيب والتفت إليهم في لوم. لكن أنظارهم كانت معلقة بالمأذون الذي هبَّ من مكانه حاملًا حقيبته إلى مقدمة المسجد. تبعه الحاج حسين البدري ووالد العروس. تحرك الجلوس في الصف الأول ليشكلوا دائرةً حولهم. تلا المأذون خطبة النكاح. ذكَّرهم أن الله أحل النكاح وحرَّم السفاح، وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا. وضع والدا العروسين كفَّيهما في بعض. كررا صيغة العقد وراء المأذون.

عندما انتهوا رفع كفيه ونادى: "الفاتحة".

رفع الجميع أكُفَّهم وقرأوا الفاتحة، أو تظاهروا بذلك.

مسح بكفيه على وجهه وهتف: "مبروك".

هبَّ الحضور المتضجر من النعاس وضيق المكان والحر واقفين. زاحمتهم أصوات التهاني في المكان.

- ألف مبروك.

- بالرفاء والبنين.

- زواج مبارك ميمون إن شاء الله.

- عقبال البكاري.

وتمازح كثيرون بدعوات الزواج لبعضهم.

حاج بشير يشعر بسكاكين ملتهبة تشق صدره بالطول. ما عاد يتحكم في سعاله. تمزَّق صدره وامتلأ كمه بالدم. فرَّ إلى باب المسجد قبل أن يراه أحد.

الحضور سيذكرون أنهم كانوا يسمعون صوت سعاله العالي خلفهم وهم منشغلون بالتهاني عندما طرقهم صوت الارتطام المكتوم. توقف السعال.

حاج بشير كان على بعد خطوات من باب المسجد عندما غامت الدنيا في عينيه.

رأى الظلام يرمح نحوه عجِلًا.

فجأة صمتت كل الأصوات.

داهمه الغياب.

ترنَّح. مدَّ يده محاولًا التشبث بأيِّ شيء. لكنه ما قبض إلا الفراغ.

انطفأ العالم.

وتكوَّم حاج بشير على الأرض محدثًا صوت ارتطام مكتوم.

* * *

"نار قلبي واقداها السكينة"

* * *

ينهش الهوى قلبه. يأكله حيًا.

طرق الغرام فؤاد بشير صبيًا. نشأ وحُب سكينة في جوفه.

حين يتذكَّر، لا يعرف يومًا ما كانت تسكن فيه قلبه. منذ كان طفلًا وكانت وليدة. منذ شبهها بـ"حلاوة القرطاس". شب وفي جوفه نار هواها تشب. لا تخفت كأنها نار قصب.

ظل يهديها السكر المسروق من مخزن بيتهم، وزجاجات عطر بنت السودان الفارغة، وحزم الحطب.

نمَّ النسيم بينهما بالهوى، فتواعدا.

لكن القدر سبقه.

كان في العشرين من عمره يسائل نفسه عن سبيل لذكر الأمر لأبيه. كيف يطلب ابن العمدة سعيد الناير الزواج من بيت البدري.

بالت الثعالب بين البيتين منذ زمن. لا يذكر أحد متى بدأ التنافس. لا يعرف أحد ما سبب التنافس. رُواة الأنساب في حجر نارتي يردون البيتين إلى أصل واحد منذ مئات السنين. مهاجر عربي نزل ببلاد النوبة. ربما جاء في زمن حمى البحث عن الذهب ببلاد السودان. في ذلك الزمن انتقلت قبائل عربية بكاملها نازعةً أوتاد خيامها من بلاد العرب لتغرسها في بلاد النوبة. رُزِق المهاجر أربعة أبناء ذكور وثلاث بنات. يقولون إن بيت البدري وبيت الناير ينتسبان إلى الابن الثالث. لكن الدم بينهما كان فاسدًا.

تنافس وتسابق لعقود. تفاخر بالأنساب والأفعال والأموال.

وهو، بشير الشاب، ربما يخلف والده في العمودية إذ ذهب التعليم بشقيقه محمد الذي يحلم أن يكون شاعرًا في العاصمة.

فهل يكون العمدة من بيت الناير وزوجه من بيت البدري؟

هل يقبل أهله ذلك؟ هل يرضى والده أن يطلب ابنة حسين البدري لولده؟ هل يقبل بيت البدري ذلك؟ هل يرضى حسين البدري أن يمنح ابنته لبيت الناير؟

كان كابوسه أن يقبل والده فيرده آل البدري رغبةً في التفاخر أن العمدة سعيد النايرأتاهم خاطبًا فردُّوه.

تلك سُبة -إن حدثت- تبقى ما بقي النخل في جنائن حجر نارتي.

تلك سُبة -إن حدثت- لا يقدر على أن يعيش بعارها.

يُقعده الخوف ويحجمه القلق.

وهو في غيهب تردُّده جاء بابكر ساتي فطار بفتاته. انقض من العدم فخطفها.

يرجع نسب بابكر ساتي إلى مدينة الغابة القريبة. لم تكن له صلة بـ حجر نارتي إلا قرابة قديمة غير مؤكدة مع العافية، الجدة الأسطورية لبيت النايز. تزعم بعض الحكايات أن بابكر ساتي كان من نسل شقيقةٍ للـ عافية لا يذكر أحد في حجر نارتي اسمها. هذه الحكاية تتكئ على ما زُعِم في زمن ما أن العافية يرجع أصلها إلى قرية ساب الزبيرية. قيل إن أهلها من القلة التي نجت من نكبة القرية. ثم حمل الزواج العافية إلى حجر نارتي، وذهب بشقيقتها إلى الغابة.

هذه الصلة -غير المؤكدة- بـ حجر نارتي، ورغم أنها ترتبط ببيت النايز، إلا أنها ما أغرت بعض النسوة من أسرة بابكر ساتي أن يرشحن له سكينة بنت البدري التي ذاع صيت حسنها في البلاد زوجة.

ما كان بابكر ساتي أقل صيتًا منها. كان ضابطًا في قوة دفاع السودان. الضابط الوحيد في كل المنطقة من حدود ديار الدناقلة شمالًا حتى بداية بلاد الشايقية جنوبًا.

يمشي اسمه بين الناس بالفخار والتوقير.

ويقسم بعض الناس برأسه كما لو كان من الشيوخ الوراريق. الأمهات كنَّ يلاعبن مواليدهن بالأهازيج المتمنية أن يكبروا ليصبحوا مثله.

الضابط المقاتل الشجاع في مدفعجية شندي من قوة دفاع السودان.

تكونت تلك القوة في منتصف العشرينيات، بعد خروج الجيش المصري. كان على رأسها ضباط إنجليز أكفاء برتبة أميرلاي، تحتهم ضباط إنجليز برتبة الأمباشي، وبعدهم مباشرةً الضباط السودانيون مثل بابكر ساتي.

لم تكن القوة، التي تكونت قبل نحو اثنتي عشرة سنة، قد خاضت أية حرب أو جُرِّبت في قتال. لكنها فرضت سيطرة الحكومة في قمع تمردات قبلية صغيرة واضطرابات أمنية عابرة. رغم ذلك كان لأفرادها من السودانيين -لا سيما الضباط- احترامٌ وتبجيل عند الأهالي.

وعلى هذا التبجيل وقف بابكر ساتي عاليًا وهو يرسل لخطبة سكينة بنت البدري.

تلقى بيت البدري طلب النسب بسعادة فائقة. هذا صهر ندر أن يجود به الزمان. في كل المنطقة عساكر نفر كُثر بقوة دفاع السودان، لكن فيها

ضابط وحيد هو بابكر ساتي. وهو يطرق بابهم خاطبًا.

كان صهرًا لا يُرَد مثله.

لكن حسين البدري لم يكن بحماسة أهله لذلك النسب.

* * *

يناور حسين البدري ضغوط إخوته وأسرته.

يأتيه المفاوضون كل يوم. بعضهم يطرقه فاتحًا الموضوع مباشرة، وبعضهم يزوره متصنعًا المصادفة ثم يذكر الأمر كأنما لا يعنيه.

لا يجرؤ الرجل على ردِّ أهله صراحة. لكنه لا يمنحهم موافقة شافية. يراوغ ما وسعه.

- البنت ما زالت صغيرة.

- البنت في السادسة عشرة من عمرها. أصغر منها تزوجن.

- البنت لا تعرفه ولا يعرفها.

- متى كانت الزوجات يعرفن أزواجهن؟ إنما الزواج مصاهرة بين الرجال. وبابكر رجل تشرف أية أسرة مصاهرته.

- الزواج من ضابط في قوة دفاع السودان يعني العيش بعيدًا عن أمها، والتنقل من مكان إلى مكان.

- هل يحبس الزوجات أزواجهن لأجل جوار الأمهات؟ على الزوجة أن تتبع زوجها حيث ذهب. ولا يوجد بيت في حجر نارتي ليست به زوجة من قرية أخرى. فهل نأخذ بنات الناس ونمنع بناتنا؟

- هل يبدو فارق السن مناسبًا بينهما؟ الرجل في منتصف الثلاثينيات!

- أيعيب العمر زوجًا؟ ما زال الكهول والعجائز يتزوجون الأبكار الصغيرات منذ خلق الله الدنيا. سيدنا النبي تزوج ستنا عائشة وعمرها نصف عمر سكينة!

يُجرِّب كل الحجج، يحاول كل الحيل. ثم يعد بالتفكير.

لكن لا أحد يمنحه فرصةً كافية للهرب. أشقاؤه يظهرون الغضب من صيت الفتاة الحلوة. يزعجهم أن يتغنى بحسنها الناس. واعتدى بعض أبناء عمومتها على محجوب سائق الباص لأنه كتب اسمها على ظهر العربة.

لا ترضى أسرة كريمة بأن تُذكَر نساؤها من كل من هبَّ ودب. لا يليق أن يتغنى السفهاء والعاطلون بجمال بناتهم.

تزداد الضغوط على حسين البدري.

يُذكِّره أهله ما يعني هذا النسب في مواجهة بيت النابر. بيت العمودية الذي ليس لديه ضابط من أبنائه ولا أصهاره. بل بعضهم عساكر في قوة دفاع السودان، مما يجعل صهرهم المرتقب أعلى سلطة منهم.

لكن هذه الحجة، التي تغري جميع أهله، هي أقل الحجج إغراءً لـ حسين.

كان الرجل منفتحًا على الحياة بكل أهلها. وله صداقات في بيت الناير، ورفاق أنس وجلسات سُكر. لم يكن مهتمًا بمنافسة أهله مع بيت العمدة. ففي النهاية كلهم أهل حجر نارتي. "وفي النهاية كلنا نُدفَن في جبَّانة واحدة" كما كان يقول.

لكنه ما كان يقدر أن يُسفِّه هذه الحجة لأهله. لا يمكنه أن يقلل علنًا من أهمية العلو على بيت الناير.

ويُفكِّر أنه ربما اشترى بموافقته أهله على هذا الزواج قليلًا من رضاهم عنه ليقللوا من إزعاجهم له على عدم تعصُّبه في المنافسة الدائمة.

ربما أقنعتهم موافقته على الزواج أنه أدَّى ما عليه للأسرة، فلا يطلبون منه شيئًا آخر ما بقي له من عمر. سيبتزهم دومًا بأنه من جلب لهم الصهر المهم بابكر ساتي. هذا فضل لن يجرؤ أحدهم على أن ينكره عليه ما عاش.

يلين موقف حسين البدري قليلًا وهو يفكر أن قبوله بالزواج يعني راحة باله لمُقبل عمره. وهو لا يُزوِّج ابنته لخامل ولا ضعيف. إنما لضابط رفيع القدر. فلعلَّ الأمر ليس سيئًا. هو لا يؤذيها. إنما يزوجها لابن قبائل، جيد، وله مركز حسن.

يساوم نفسه على الأمر.

يلين أكثر. وأهله يضغطون أكثر.

يحب سكينة. لكنه يحب الحياة أكثر.

في نهاية الأمر، بعد أسابيع من المراوغة، ينهزم حسين البدري أمام رغبته في راحة البال. يعلن موافقته على الزواج، بشرط أن تقبل سكينة. شرط شبيه بالعدم.

فما كان لفتاة أن ترفض زوجًا، ما لم تُرِد أن يُظَن بها الظنون.

* * *

تقول الحكايات إن أول ما عرفت حجر نارتي موهبة وزين الدهب في الغناء كان في زواج سكينة بنت البدري.

الزواج الذي حدث في منتصف عام 37. برز صوت دهب بين فتيات القرية كمزماز من مزاميز داوود. غضًا رطبًا، كصباح معتدل.

حشد بيت البدري كل نفوذه وعلاقاته ليُباهي بذلك الزواج.

تجمَّلت حجر نارتي كما لم تفعل قبلًا لاستقبال الأصهار الآتين من مدينة الغابة.

وقف أعيان البلد يستقبلون الضيوف. يملأ الزهو آل البدري، ويأكل الغيظ حيطان بيت النايرِ. وتغني دهب فيطرب الجميع.

وصل الأصهار في موكب من الرجال والنساء يتقدمهم الضابط المهيب.

لم يعرف بشير حسرةً كذلك اليوم.

الكراهية التي شعر بها كانت حريقًا يأكل النخيل. ودَّ لو تُخسَف الأرض بجميع الناس، كل الخلق، فلا يبقى إلاه وسكينة.

لو ضربت الزلزلة حجر نارتي فنجا ونجت. يأخذها ويفر. لا يلتفتان. لماذا لا تسقط الشمس عن مجراها فتحرق الضابط وأهله وحجر نارتي والبلاد والدنيا.

حين قُدِّمت أطباق الثريد أقسم أن ما بها هو لحمه لا لحم الخراف. اللحم لحمه والمرق دمه. والآكلون ينهشون قلبه بسرور.

عاد شقيقه محمد لحضور الزواج.

حمل معه أحاديث العاصمة وثرثرة السياسة وتفاهات العالم.

ماذا يعني السعي إلى تكوين مؤتمر للخريجين من كلية غردون؟ ما قيمة الاستقلال الذي يطالبون به؟ يتنازعون على سيادة البلاد بعد معاهدة حكومة النحاس باشا في مصر مع الإنجليز. ما قيمة كل ذلك وسكينة ستتزوج بابكر ساتي؟

سافر السيد عبد الرحمن باشا المهدي إلى لندن ليستفسر عن سيادة السودان! هلا سأل الإنجليز عن سكينة؟ هلا سأل ملكهم عن الحب؟

حين خرج الجيش المصري قبل ثلاثة عشر عامًا ذهب معه عدد من السودانيين المجندين به. رفضوا التخلي عن خدمة الخديوية. فلماذا لا يخرج الإنجليز ومعهم عسكرهم السودانيون وبابكر ساتي؟

تؤيد طائفة الختمية، التي تنتمي إليها أسرته، سياسة مصر في البلاد. وتؤيد طائفة الأنصار، التي تنتمي إليها أسرة سكينة، سياسة إنجلترا في البلاد. المثقفون مشتتون بين السير علي الميرغني، وعبد الرحمن باشا المهدي.

يشغل هذا الهراء شقيقه محمد فلا يتحدث إلا عنه. ويسمعه الكبار في انبهار.

يقول أحد العجائز:

- والله المصريين ناس خير. مسلمين، يصلُّوا مثلنا.

يقول محمد الشاب المتحمس بسياسة العاصمة:

- المصريون كانوا رفاق كفاحٍ ضد الاستعمار الإنجليزي، لكن بعد المعاهدة رجعوا بنا إلى اتفاقية الحكم الثنائي لعام 1899. لقد خانونا.

يقول عجوز آخر:

- الإنجليز عملوا لنا مدارس ومشاريع. والله عدلهم خير من تسلط الترك والمصريين.

- الإنجليز لا يفعلون شيئًا إلا زيادة الشقة بيننا. منحوا الميرغني لقب

سير، وأعطوا الأراضي والتوكيلات الحكومية لعبد الرحمن بن المهدي.

يتزعج العجائز من الجانبين. يهتف كل جانب مصوبًا.

- السيد علي الميرغني! لا تقل الميرغني هكذا! ألا تخشى عاقبة الاستخفاف بحفيد رسول الله؟

- السيد عبد الرحمن! لا تقل عبد الرحمن بن المهدي! ألا تحترم السيد ابن الإمام المهدي عليه السلام؟

يقول العمدة سعيد الناير:

- طلبة المدارس وما يملؤون به رؤوسهم! لا يحترمون كبيرًا. ماذا فعل الخريجون لهذا البلد؟ رجال أمثال السيد علي الميرغني ووكلائه هم من يخدمون السودان.

يصوبه أحد آل البدري:

- وأمثال السيد عبد الرحمن.

يحتج محمد:

- الجميع وقَّع على سفر الولاء لبريطانيا. الجميع سافروا لتقديم الولاء للملك الإنجليز.

تتجه الأنظار إلى الضابط المهم. الصهر الأنيق. الضابط يبتسم ولا يندفع برأي.

يتمنى بشير أن يدلي الضابط برأيه. هو عسكري في قوة دفاع السودان. فهو بلا شك موالٍ للإنجليز. يعمل تحت إمرتهم. لكن ربما قال شيئًا يغضب أصهاره الجدد. وتنتهي المأساة قبل أن تبدأ. لكن بابكر ساتي يقول في حصافة:

- ماذا يفهم الصغار وطلاب المدارس في شأن البلاد والسياسة؟

يضحك الحضور ويشاركونه الاستخفاف. ينكمش **محمد الناير**، ويستعر قلب بشير.

تمر أحاديث السياسة الغبية بسلام ولا تفسد الزواج.

يتبادلون الدعابات والحكايات. كأنهم ليسوا على خلاف وتناقض.

كان بشير على استعداد أن يقف ويهتف بحياة فاروق ملك مصر وسيد النوبة وكردفان ودارفور، أو حياة جورج السادس ملك بريطانيا العظمى وأيرلندا. أي شيء ليوقف الزواج.

سيبايع ابن المهدي، أو يأخذ العهد عن الميرغني. لا يهم. سيفعل أي شيء الآن ليختلف الحضور وينفض عقد القران.

لا تقرؤوا الفاتحة، العروس ضابط في جيش الإنجليز يا بني آدمين.

يقرؤون الفاتحة ولا يبالون.

لا تكملوا العقد، البلاد ممزقة بين الولاء لمصر والولاء لإنجلترا.

يكملون العقد ولا يبالون.

لا تزغردن، فـ سكينة لي. *وعدتها القماري.*

يزغرد النساء ولا يبالين.

فرحًا بالصهر والزواج يحمل الحماس حسين البدري فيعلن أنه يهدي فدان أرض لابنته سكينة. يشعل حماسه الأعمام والأخوال فيشاركونه الكرم. بعد صلاة العصر كانت سكينة بنت البدري زوجةً للضابط بابكر ساتي، وتملك ما لا يقل عن أربعة عشر فدانًا من خير أراضي بيت البدري.

أمام عينيه الغائمتين بالدموع، يذهب بابكر ساتي الضابط المهم في قوة دفاع السودان بحبيبته. تزفها القرية مودعة انتقال العروس مع زوجها إلى مدينة الغابة.

يذهب بها ويترك لـ بشير الناير حزنه وقلبه المتصدع.

يذهب بها.. ولا تُمسي سكينة بنت البدري أجمل فتاة في حجر نارتي.

لقد ذهبت.

* * *

سألته إحدى النسوة: "عجبتك يا البشير؟"

مدَّ عنقه ينظر أكثر، ثم قال: "حلوة زي حلاوة القرطاس".

* * *

أفلتي قلبي ودعي لي قليلًا من الحياة.

يحاول البشير أن ينسى حبيبته التي أصبحت زوجة رجل آخر.

يجاهد أن ينزعها عنه، لكن لحمه يتمزق وتزداد فيه انغراسًا.

كيف يسلو المحبون؟

كيف ينام العاشقون؟

ليله هلاوس متواصلة بمحياها وابتسامتها. ونهاره ذكريات متواصلة بنظرتها ورأسها الذي يميل يسارًا حين تتحدث.

تمر الأيام ولا يبرأ الهوى.

تمر الأيام ولا يشفى له جرح.

تنزل النوازل ولا يشغله عن عشقه شاغل. يموت والده العمدة سعيد النابر فجأة.

كان واقفًا يحاسب مزارعيه ويُضيِّق عليهم حين جحظ بلا مقدمات. ثقل لسانه، وترنح.

انهار من طوله كنخلة عصفت بها الريح.

شخر، ومات بين يدي حامليه قبل أن يصلوا به بيته.

تحطم الفاجعة بشير. ذهبت *محبوبته منذ عام ويموت والده اليوم. أي*

حياة هذه، وأي دنيا؟

يسنده أعمامه ليتماسك. لكنه يجزع كامرأة ثكلى. يحدثونه عن العيب، والرجولة، والصبر في الملمات. فيجيبهم ببكاء نائحة حرى.

وبيت البدري يخرج من مكمنه ليطلب العمودية. ينفض آل النابر يدهم عن بشير. يرسلون إلى شقيقه الطالب في العاصمة.

"احضر فورًا. الإنجليز سيعطون العمودية لـ بدري. حضورك عاجلًا لترث حقك".

يأتي محمد سعيد النابر ليدرك ميراث أسرته. يترك العاصمة والسياسة والشعر. يحمل الأمانة ويصبح عمدة. يترك الأفندية التي كانت تنتظره. لكنه يواظب على الاشتراك في صحيفة حضارة السودان من العاصمة، ومجلتي الرسالة والهلال من القاهرة.

ينسلخ محمد من أفنديته. ولا ينسلخ من حبه بشير.

يلازمه الحزن. يمشي هيكلًا فارغًا. صورة بلا حياة.

ينصحه أخوه. يُحسِّن له الزواج في عينيه. لكن البشير لا يسمع ولا يعي.

مات موتتين.

لكن الزمان كان يخبئ له أمرًا.

الحكايات الممتعة دائمًا ما تخبئ أمرًا.

وحكاية بشير كانت كذلك.

* * *

تنقلب الدنيا.

إنها الحرب. يصخب بها العالم.

الجنون يعصف بكل شيء. الإنجليز يحاربون ومن خلفهم مستعمراتهم. ومن العاصمة أتت الأخبار.

جيوش الطليان دخلت مدينة كسلا بشرق البلاد في يوليو 1940. انسحبت قوة دفاع السودان من المدينة بعد معركة أشاد فيها الإنجليز بشجاعة العساكر السودانية. لكن كسلا سقطت. ورجفت البلاد من الغزو الإيطالي الزاحف من حدود الحبشة. الطريق مفتوح إلى الخرطوم. هل تكون نهاية الإنجليز؟

يتعلق قلب بشير بالأمنيات.

سيهزم الطليان الإنجليز، ويخلي جيشهم البلاد، ويخرج معهم بابكر ساتي مدحورًا. لكن هل يترك آل البدري بنتهم تذهب مع جيوش الإنجليز؟ لقد انزعجت أمها جدًا وبكت لليالٍ طويلة عندما سافر بها بابكر ساتي من الغابة إلى مدينة شندي حيث تستقر فرقته العسكرية. اشتكت الأم وطالبت بعودة ابنتها من شندي. لكن زوجها نهرها وأمرها بالتعقل والصمت. فهل تقبل أن تذهب سكينة مع جيوش الإنجليز إلى حيث يعلم الله؟ أين تذهب

الجيوش المهزومة؟ إلى جهنم، شرط أن تعود سكينة إلى حجر نارتي.

لكن الإنجليز لم يركنوا إلى الهزيمة.

حشدوا القوات، واستحثوا الهمم.

تزحف قوة دفاع السودان شرقًا لملاقاة العدو. يتبعهم قلق الأهالي وتأييدهم. دعم لامحدود للإنجليز. البلاد جميعها تدعو لانتصار الإنجليز. وتنتشر الأغنيات.

"يجو عايدين

يجو عايدين يا الله

يجو عايدين / إن شاالله زايرين

يا الله

يجو عايدين

بالمدرع والمكسيم

يا الله

فكري انشغل / ودمعي انهمر

الساقو القطر

أبقى قمرة جوه القطر

يا الله

في السكة الحديد / قَدّمت الحبيب

الفرقة الصعيب

ما حضرت ليالي العيد

يا الله

يجو عايدين / ظباطنا منصورين

يا الله"

قصفت طائرة إيطالية الخرطوم. لكنها لم تكسر المعنويات المرتفعة. الناس كلها تدعو للإنجليز والعساكر السودانيين. والتبرعات تُجمَع في طول البلاد وعرضها وعمقها حتى حجر نارتي.

أشرف العمدة محمد سعيد الناير بنفسه على جمع التبرعات، وسافر على رأس وفد لتسليمها للحكومة وتأكيد الدعم والولاء.

حبست البلاد أنفاسها تترقب.

المعارك في كسلا وكرن وأسمرا. تتقدم قوة الدفاع. يرسل بابكر ساتي زوجه إلى أهله في الغابة إذ تذهب فرقته شرقًا.

قتال شرس وحرب طاحنة.

الإنجليز أم الطليان؟

هل يندحر العدو، أم تسقط الخرطوم؟

البلاد تخلص الدعاء لينصر الله الإنجليز وملكهم على الطليان ودوتشيهم.

وبشير يدعو لنفسه وسكينة.

ثم..

كليلة القدر..

استُجيبت كل الدعوات.

جاءت أخبار النصر فرحة متأبطة البشارة للعاشق المكلوم.

بارك الله في بنادق الطليان.

* * *

خنادقنا يا المحفورة

سنة أربعين منصورة

بالدوتشي نلعب كورة

والقون هنا

الله لي / الليمون سقايته عليّ

يا زول أنا

* * *

ما كانت السماء بخيلة على داعٍ.

في البلاد التي تبدو كما لو أنها صُنِعت في صدفة ما. بلا خطة واضحة، وعلى عجل، يمكن أن تستجيب السماء في أية لحظة.

كرامة للنهر الآتي من الجنة، ترسل السماء هداياها للغرقى على اليابسة العطشى، المتورطين في هذه البلاد بحكم الميلاد. لم يختاروا أن يكونوا هنا، لكنهم نبتوا على ضفاف نهر الجنة. لم يحملهم الماء، لكنهم غرقى على شطِّه.

تدللهم السماء أحيانًا فتجيب الدعاء.

انتـصر الإنجليـز على الطليـان. قوة دفـاع السـودان نكَّلت بجيوش الغزاة.

في نهاية مارس 1941، دخلت البلوكات السريعة السودانية مدينة كرن الإريترية. ثم طاردت قوات الطليان المنسحبة حتى مدينة أسمرا التي استسلمت مجهدةً لقوات الحلفاء التي تتقدمها العساكر السودانية.

عمَّ الفرح البلاد. وغنَّت جزلة:

"الله لي/ الليمون سقايته عليّ

يا زول أنا

الله لي/ موسيليني يا الطلياني

يا هتلر الألماني

شخصك مثال شيطاني

روسيا مش هاماني

العراقِ واليونانِ

النمسا والبلقانِ

الصينِ واليابانِ

مصرَ والسودانِ

وهوى الجميع بريطاني/ يا زول أنا

خندقنا يا الحفروه

مدفعنا يا العبوه

الإنجليز اتنصروا

جابوا العلامة وجو/ من أسمرا

الله لي/ الليمون سقايته عليّ

يا زول أنا"

كانت كرن انتصارًا داويًا. أشبع نهم أهل البلاد للفخر والمدح.

وفي كرن، سقط بابكر ساتي مكللًا بهذا الفخر ومستحقًا الخلود في المدح.

ستتضخم الحكايات بمرور السنوات. وكلما ذُكِر بابكر ساتي سيتعاظم دوره في المعركة، حتى يصبح بعد سنوات فارسها الوحيد. المقاتل الفرد

الذي فتح كرن وأجلى عنها الطليان ثم سقط صريع رصاصاتهم المرتبكة وهم يفرُّون من أمامه.

ستُتوِّجه مدينته **الغابة** محررًا أسطوريًا، وعنها تأخذ بقية المنطقة الحكايات. تنسج **حجر نارتي** زياداتها؛ فالرجل منها بحكم المصاهرة. الباسل الذي أرعب الطليان وحده. حتى أن الدوتشي نفسه هنأ قواته المنهزمة بقتلها الفارس الأسطوري. روما رأت في مصرع **بابكر ساتي** تعويضًا عن خسارتها مستعمراتها في شرق إفريقيا.

أمّا بشير..

بشير العاشق..

تلقَّاه الخبر فأطاش صوابه. كان صباحًا في بيتهم، بيت العمدة القديم قبل أن يدهمه فيضان العام 1946. سمع العويل فما اهتم. ظل متكئًا لا يعبأ. يتابع بعينين ميتيتين شقيقه الرشيد ذا السنوات الثلاث يعدو في الفناء بشقاوة الأطفال. يتيم لا يعرف مصابه. وُلِد بعد وفاة والده بأسابيع. نادت بشير أمه تستفسره عن الضجة والصياح. أدار وجهه إلى الحائط متصنعًا النوم ولم يُجِبها. أرسلت أمه الخدم فأتوها بخبر أن بيت البدري به ميت. النسوة يندبن، والرجال غادروا عجلين. فليمُت آل البدري جميعًا جزاء ما فعلوا. ليتهم ينوحون لألف ألف عام حتى تحترق

قلوبهم كما احترق قلبه. جلس من ضجعته. قام مغادرًا البيت هاربًا من واجب العزاء ومجاملة الناس الذين يكره.

دخل الزريبة فلما وجد إلا حصانًا عجوزًا أجهدته السنون. أسرجه وحمل نفسه عليه وضرب شرقًا. أبعد النجعة عن المنازل. هام حتى مالت الشمس. ثم عاد مُكرهًا.

ألفى القرية هادئة. لا صياح ولا ضجيج! أماتوا جميعًا وما بقي سواه؟

تلقاه الخدم بالخبر اليقين.

جمد لوهلة! هل حقًا أكرمته السماء؟

- جاء خبر من الغابة أن بابكر ساتي زوج ابنة حسين البدري مات في الحرب.

قولوا ذلك مرة أخرى.

كرروه على مسامعي.

اهتفوا به.

غنوه.

مات بابكر ساتي؟

بعد أربع سنوات كأنها عمر؟

مات بابكر ساتي؟

مات بابكر ساتي؟

مات بابكر ساتي؟

مات؟

ذهب إلى حيث لا يرجع أحد؟ ضمَّته الأرض فلن تفلته إلا ساعة القيامة؟

خرَّ من على فرسه ساجدًا أمام الخدم المذهولين.

مرغ في التراب وجهه.

حمد الله كما لم يفعل من قبل.

شعر بإيمان لم يزره من قبل.

اللهم لك الحمد والشكر على ما أنعمت.

اللهم لك الحمد والشكر على ما قضيت.

فليذهب بابكر ساتي إلى علياء الجنة أو يخلد في قاع الجحيم. لا يهم. المهم أنه لم يعد هنا.

فليمُت بطلًا أو يذهب فطيسًا. لا يهم. المهم أنه لم يعد يحجز بينه وبين سكينة.

"أين الناس؟". سأل والبِشر ينير وجهه كقمر أسبوعين.

- ذهب الجميع إلى الغابة للعزاء.

الناس هناك. وسكينة هناك. وبابكر لم يعد هنا!

هل...؟

قفز على حصانه. ألهبه ليعدو. جرى الفرس العجوز كأنه البراق. جرى بلا توقف. يمر بالقرى فيراه أهلها وينادون. لكنه لا يتوقف. يسلك الدروب المختصرة. يقفز بحصانه فوق كل حاجز. لا حاجز اليوم بينه وبين سكينة. لا مسافة اليوم تمنعه عن سكينة.

ركبه الجنون.

ما كان يسمع ولا يرى.

كان يطلب حلمه فحسب.

كان يسرع إلى سكينة.

رحلته كانت طويلة.

مع صلاة العشاء برك الفرس أمام بيت العزاء في مدينة الغابة. شخر يطلب الهواء. ثم انكفأ على وجهه يشحط. سقط عنه بشير. لكنه لم يهتم. هبَّ قائمًا، تاركًا حصانه يموت واقتحم العزاء.

أمام أعيان المنطقة وكبار أهالي الغابة وأهل الميت وبيت البدري وبيت

النايو وأهالي حجر نارتي والمعزين من كل القرى من الكرد والجابرية وكرمكول والكونج وقريش بابا وساب الزبيرية وسروة، قفز أمام حسين البدري وصاح ملء جنونه:

- يا حاج حسين جئتك خاطبًا سكينة لا يسبقني إليها مخلوق.

لطم الصمت الحضور.

ووضعت الفضيحة نعالها لتجري معلنةً ما حدث.

* * *

بارك الله في بنادق الطليان.

* * *

تضج حجر نارتي بما حدث.

تغلي القرية ويتربص بها الشر. بيت البدري يجتاحه الغضب من الفضيحة التي وقعت بمحضر المنطقة كلها. وبيت النايو يأكل نفسه بما اقترف البشير ويظهر التبجح لخصومه. وبينهما يمشي الناس بالنميمة والانحيازات.

- والله ما له حق يفضحكم بهذا الشكل قدام الناس! لكن هذا طبع بيت النايو. يستخفون بالجميع.

- ما حصل لكم لم نسمع أنه حصل لبيت محترم.

- آل البدري لا سيرة لهم إلا بشير. سمعت أنهم عزموا على الاعتداء عليه. خلوا بالكم.

- سمعنا أنه كان بينهما شيء قبل الزواج.

- هل كفر الولد أنه طلب الزواج من بنتهم؟ والله شكرًا له. شاب من خير الشباب ويريد أن يتزوج ثيبهم التي نحست زوجها فمات بعد أربع سنوات!

- ستتركون فعلة ولد النابر تمر هكذا بلا عقاب؟

- بيت البدري طبعهم الاستعلاء والاستخفاف بالناس. ماذا فعل ابنكم ليقيموا الدنيا هكذا؟

- نسوة بيت النابر يقلن إن سكينة نحس ولا يرضون لابنهم أن يتزوجها!

- بنت البدري سحرت له منذ زمن قبل زواجها. هذا ما جعله يفعل ما فعل.

- طبعًا أنا في صفكم، ما في شك.

- البلد كلها معاكم إلا أصحاب المصالح.

كاد محمد سعيد يضرب أخاه وهو يصرخ فيه.

- فضحتنا أمام الناس.

ثم يقول لمن يسأل:

- شاب خطب امرأة من والدها. إما أن يقبلوا أو يرفضوا. لا داعٍ للتزيد في الكلام.

أعمامه مجتمعون على رأي واحد. لا يمكن أن ينزلوا تحت رحمة آل البدري إن شاؤوا عفوا وإن شاؤوا عاقبوا. لا بد من المبادرة بفعل يجعل الحقَّ لبيت الناير. لكن ما الحيلة وكل القرى كانت شهودًا على ما فعل بشير؟

وفي بيت البدري لا حديث إلا عن الرد على الإهانة التي وجهها إليهم ابن الناير. إلا حسين البدري.

كان الرجل محرجًا مما فعله الشاب، لكنه ما كان غاضبًا. حاول بلطف تهدئة أهله. إخوانه وأصهاره كانوا وراء الجنون بمسافة.

هدَّد أحد الشباب بحرق نخيل بيت الناير. قال حسين مترفقًا:

- يا ولدي لا أحد يلعب بالنار! قشة كبريت واحدة في البلد تحرق كل نخيلنا. النار لا تتخير النخل بشهادات الملكية!

ثم أضاف مبطنًا نصيحته للجميع:

- المثل قال "من شرط دمورك لا تشرط حريره". يعني لا يبالغ العاقل في الانتقام. من مزَّق قماش دمُّور لا تعاقبه بتمزيق قماشه الحرير. إنما يكون الجزاء بقدر الفعل.

- فعلهم أسود وما ينتظرهم منَّا سيكون أسود من فعلهم.

- الفاعل واحد. بشير هو من أخطأ وطلب سكينة زوجةً في يوم عزاء زوجها. لا يصح أن ننسب فعله إلى كل أهله.

- ما كان ليجرؤ على جريمته لو لم يكن من بيت الناير.

الجنون يترصد القرية. ولا يعلم إلا الله أين تنتهي الأمور.

يلوم حسين البدري في سره بشير. لا على ما فعل يوم العزاء، إنما على كتمانه رغبته في سكينة. لو خطبها منه قبل زواجها لوافق حتى بعد خطبة بابكر ساتي. يُكِنُّ للشاب مودةً كأنه ابن له. ويُقدِّر والده الراحل العمدة سعيد. ومهما كره أهله فإن بيت الناير هم أبناء عمومة بيت البدري. يتنسبان إلى ذات الجد.

يراقب انزعاج إخوته ونفث النفَّاثين في المشكلة. يعرف أن الأمور إن لم تُحسَم سريعًا فسيحدث ما لا يمكن تداركه.

يُفكِّر في خطوة تنهي كل المشكلات وتقضي على الفتنة.

لكنها خطوة تحتاج إلى جراءة. يبحث عنها داخله فتراوغه. يتمنى لو يقدر على اتخاذها.

يحتاج السلام إلى قفزة مفزعة في الظلام. فبه يستتر الحاج حسين ويزور العمدة الشاب محمد سعيد الناير ليلًا.

يتحادثان طويلًا.

يخشى العمدة أعمامه. يخشى حسين البدري إخوانه. ويخشى الاثنان الفتنة.

يشجعان بعضهما. سيقفزان في الظلام.

يتفقان. يبعثان إلى الشاب العاشق، فيأتي. يبشراه.

يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

* * *

يمر الزمان كمرٍّ سحب الخريف في السماء.

تتساقط أشهُر العدة، ويقترب الحلم.

سيتزوج بشير الناير بـ سكينة البدري.

تصدق نبوءة القمري. ينتصر الحب على عداء الأسرتين.

خاض حسين البدري معركته ضد أهله. أقنعهم بصعوبة أن خير حلٍّ للفضيحة هو قبول طلب العاشق الشاب. وخاض العمدة محمد سعيد الناير معركته ضد أهله. أقنعهم بعناء أن أفضل مخرج لهم من الفضيحة هو طمرها بالزواج.

سيتزوج بشير الناير بـ سكينة، فينسى الناس فضيحته. لن تلوم حجر نارتي رجلًا على زواجه من امرأة يريدها.

يزور بشير أصهاره الجدد. يجتهد في إظهار احترامهم ومودتهم. تنزع الكلمة الطيبة شارب الأسد. يتغير موقفهم الغاضب شيئًا فشيئًا. كما تتحول الزهرة إلى ثمرة ليمون تحت عين الناظر، يتحول الرفض الغاضب إلى قبول ودود.

تنضج ثمرة الليمون.

ينقلب التهارش المنزعج بين البيتين إلى مودة متباسطة.

سيتزوج بشير الناير بـ سكينة.

سينسى البيتان -مؤقتًا- ما بينهما من تنازع. ما في القلب في القلب، لكن سكينة لـ بشير.

تتساقط أشهُر العدة، ويقترب الحلم.

ما أحلى الحياة إذ تبتسم. ما أبهجها إذ تُقبل.

سكينة *يا منتهى الحلم.*

من ابتسامتك خُلِقَ العالم. ولعينيك يجري بحر النيل.

يغرق بشير في السعادة. يتقلَّب فيها ظهرًا لبطن.

فليصخب العالم كما يشاء؛ فـ سكينة له، وبعدها لا شيء يهم.

* * *

في العام الذي تزوج فيه بشير بـ سكينة بنت البدري غرقت سعاد.

* * *

تسبق فايت ندو الفجر كل يوم.

ما جاء فجر عليها وهي نائمة قط. تتحرك في عتمة السحر، تجهز أدواتها، تُبخِّـر أكوابها، تخلط القرنفل والحبهان والزنجبيل. تقلي البن، ثم تدقه في هونٍ خشبي حتى يصبح ناعمًا.

وعلى دقات الهون تستيقظ عبير.

تنهض كنهرٍ خريفي عكر، متغضنة الجبين، متورمة عيناها، محاطة بصديد لزج. تهرش شعرها. تسند ظهرها إلى الحائط.

تناديها أمها:

- لا تتأخري بعدي. لا أعرف أين تختفين كل يوم. لكن لمرة على الأقل لا تتركيني وحدي للعمل.

تهز عبير رأسها.

تحزم فايت ندو حاجياتها مستعدة للخروج.

- سأزور خالك بشير في طريقي. لم أره منذ يومين. هل زُرته قريبًا؟

رأته عبير أمس. كانت تتسلل من بيت الرشيد فدخلت على بيت بشير لتبرر برؤيته غيابها عن أمها.

- أمس.

- لم تخبريني. زوريه اليوم. لا تغيبي عنهم. هؤلاء أهلك. أولاد العمدة سعيد أخوالك.

تقوم عبير، يناوشها الغثيان. تشعر بصدرها الصغير منتفخًا. تتمطى. تنظر إلى أمها في صمت.

ماذا سيكون رد فعلها إن عرفت ما تفعل عبير مع أحد أخوالها؟

ما عاد الرشـيد يصـبر عنها. لا يمر يوم إلا ويتصيدهـا فيه. يجرُّها إلى بيته. يُحكم إغلاقه عليهما. يعتليها ويطير. تخرج من عنده ليعثر عليها أحمد شقرب. يجرُّها إلى العيادة. يُحكم إغلاقها عليهما. يضمها ويطير.

تحمل عبير كليهما إلى السـماء. كفرس أسطوري يفرد جناحيه ويُحلِّق. تذيقهما من المتعة ألوانًا. صنوف هناء غير معهودة.

الصبية النحيلة مخلوقة من رحيق الشغف.

تنتقل بين العاشـقَين كما تنتقل القُبلة من شفاهٍ إلى شفاه. تحمل البهجة فتبثها فيهما.

تلح على الرشـيد أن ينجز وعده بالشـفاعة فيعدها عجلًا. يلح عليها شقرب أن يتزوجها فتعده عجلة.

بات شـقرب أكثر سرورًا ولطفًا مع مرضاه. جعلت عبير الدنيا أحلى في عينيه. يمشي في دروب القرية مغنيًا:

"لو بهمسة / قول أحبك.

لو بنظرة / حتى عابرة

قول أحبك

لو بتحلم في منامك

قول أحبك

لو ترسل لي سلامك

قول أحبك

كل كلمة من شفايفك أحلى غنوة

كل نظرة من عيونك فيها سلوى"

ينظر إليه الأهالي ويبتسمون.

" المساعد الطبي عاشق". يقولون.

يدخل عريش فايت ندو فيهش للجالسـين كأنما يشتاقهم منذ شهور. يتحدثون عن أي شيء فيضحك. يحكون أية حكاية فيبتهج.

كانوا يحكون عن المحرر الراحل. إسماعيل الأزهري. لابس بدلة الدمور. مات في سجن العسكر قبل أربعة أشهر. قتله المرض والإهمال.

- يقولـون إن الأزهري رحمه الله كان في اجتـماع للوزراء، وكان أحد الـوزراء مريضًا في المستشـفى. لما انتهـى الاجتماع في وقت متأخر سأل الأزهري وزراءه إن كان خفير المستشـفى سيسـمح لهم بالدخول بعد أن انتهت ساعات الزيارة.

يضحك الحاضرون، وأعلاهم ضحكًا أحمد شقرب.

- كان رجلًا لا يجود الزمان بمثله.

- رحمه الله. ضكر عفيف النفس.

- رأيـت صورته وهو يرفـع علم الاسـتقلال في 56 مع المحجوب. راجل أنيق وصباح خير.

- دنيا لا أمان لها.

يدندن أحد الحاضرين ساهمًا:

"اليوم نرفع راية استقلالنا

ويسطر *التاريخ مولد شعبنا"* .

يخفت الونس شيئًا فشيئًا. يلتفُّون إلى الرجل السعيد. يسأله أحدهم:

- كيف صحة حاج بشير؟

يرشف شقرب قهوته.

- بخير الحمد لله.

لا تُـرضي الإجابـة المقتضبة الفضوليـين. يكرر آخر السـؤال. يجيب شقرب:

- إن شاء الله خير.

يحاولـون أخذ معلومة منــه، لكنه ضنين. يشـفق أن يخبرهم ما يروي فضولهم.

تقول فايت ندو:

- زرته الصباح قبل أن آتي إلى هنا. ربنا يرفع عنه البلاء.

لكنهم لا يريدون إجابة فايت ندو. يطاردون شقرب. يتهرب من تضييقهم عليه بافتراع موضوعـات أخرى. يذهب بهم شرقًـا، لكنهم يعودون به غربًا مُلحِّين. يسـألهم عن ماضي القرية ونميمتها. يجيبونه على عجل وبلا تفاصيل راجعين إلى سؤالهم.

بعد مراوغة تطول يُعييه حصارهم فيرضخ.

- الأمر بيد الله.

مرَّت أسـابيع منذ رجع الحاج بشـير من مستشفى دنقلا. أكد الأطباء إصابته بالسل. "المرض السيئ" كما يسميه الأهالي. لا شيء في يدهم الآن. الرجل وصـل إلى مراحل المرض الأخيرة. لا عـلاج ناجع له. يرجع إلى حجر نارتي يحمل يأسه.

ينتظر نهايته.

يؤكد شقرب:

- ربنا يحسن خاتمته.

* * *

تجري نور الشام من المطبخ إلى الحجرة التي عُزِل بها حاج بشير. تصرخ في الخدم الإماء والأعرابيات.

زوجها يسـعل بعنف، ثم يبصق ويئن. يذبل كل يوم أكثر. بات جافًا كغصن يابس. هزل حتى أوشكت مقلتاه على السقوط من وجهه. يقاتل المرض السيئ بلا أمل.

تُحكم الغطاء حوله ليتقي برد ديسمبر القارس.

سبعة أشـهر مرَّت على سقوطه مغشيًا عليه في مسـجد القرية. النهار الذي فزعت فيه وما زالت فزعة.

دخلت معه دوامة الفحص الطبي والعلاج في الاسبتالية. قضت أسابيع جوار فراشه في مستشفى دنقلا. ثم عادت معه إلى القرية تنتظر ترممه.

عاشت جواره تسع سنوات زوجةً صالحة. لم تعصه يومًا ولا أغضبته. أنجبت له قبل عامين ابنه الوحيد: أزهري.

كانت طفلةً في السابعة من عمرها لما تزوّج خالتها سكينة. اعتادت أن تدعوه "عمي بشير". ثم قبل أن يتزوجها بعد عامين من وفاة خالتها، صارت تدعوه "الحاج". تحوّل عمّها زوجًا. لكنها واصلت احترامه وتبجيله كما كانت تفعل في حياة خالتها.

كانت تعرف أنه لم يرغب فيها. ولا طارده جدها حسين البدري عارضًا عليه زواجها لينقذها من العنوسة المقتربة منها وهي في الخامسة والعشرين من عمرها. كانت تعويضًا عن خالتها الراحلة، وتهدئةً لمطالبه بحقه في ميراث زوجه الراحلة. امتلكت سكينة ما لا يقل عن أربعة عشر فدانًا من خيرة أراضي بيت البدري. وورثت عن زوجها بابكر ساتي ربع ما ترك من أراضٍ زراعية في مدينة الغابة ومتاجر في العاصمة. حصل حاج بشير على نصيبه من ميراثها في بابكر ساتي بسهولة، لكن بيت البدري تململ من تسليمه ميراث سكينة في أراضيهم. شقّ عليهم أن تذهب أرضهم إلى بيت النابر. ظل حاج بشير يطاردهم لعامين. لكنه رفض -إكرامًا لذكرى سكينة- أن يرفع الأمر إلى المحكمة. بعد مطل لعامين اقترح حسين البدري على حاج بشير أن يتزوج حفيدته نور الشام. لم يجد الاقتراح هوىً عند

حاج بشير، فاعتذر. لكن جدها لم يهدأ. كان يعرف أن هذا الزواج هو ما سيطمئن أهله قليلًا على مستقبل ميراثه منهم. يكبرها حاج بشـير بستة عشر عامًا، لذلك توقع جدها أنها سترثه.

كانت نور الشام تعويضًا عن خالتها الميتة. وكانت ضمانًا مهمًا.

حاجج حسين البدري أهله.

- هذا أفضل ما يمكنكم فعله.

- أن تُصغِّرنا أمام بيت الناير! كيف تطارد بشير عارضًا حفيدتك؟

- يوم يموت بشـير النايز ترثه نور الشـام؛ فيرجع إليكم ما تهتمون به وزيادة.

- هل تضمن ألا تموت نور الشـام كما ماتت سكينة ويطلبنا ولد النايز بميراث أكبر؟

أصاب ما يقولون فؤاده في موجع. داسوا على صديد قلبه. ما كان الحاج حسين البدري راضيًا عما يفعل. لكنه عدَّ نفسه مجبرًا ليهدئ مخاوف أهله ويضمن لحاج بشير حقه في الميراث.

- لـ بشـير شرعًا نصـف ما للمرحومة، أي إنه سـيرث ما لا يقل عن أفدنة سـبعة. ما بقي لنا؛ أمها ترث السدس، نحو فدانين وبضعة أسهم. والباقي لي. كل ما يزعجكم هو سبعة أفدنة، لو ورثته نور الشام فإن ربع هذه الأفدنة، وهو نحو فدانين إلا بضع كسور، يرجع إليكم. لن نفقد إلا

خمسة فدادين، وهو لا شيء مقابل أنكم سترثون فيما ترك له العمدة سعيد النابر. تلك أراضٍ لا حصر لها. فماذا تريدون؟

- فإن ورث نور الشام؟

- أتدعو على حفيدتي بالموت كما ماتت ابنتي؟

- لم أقصد يا حاج! إنما سألت.

- لم تقصد، لكنك فعلت.

تهرَّب حاج حسين البدري بغضبه المدعى من لومه لنفسه.

المرأة فاطمة أم الصبية سـعاد تطارد جثة ابنتها منذ نحو عشرين عامًا، وهو يتحايل على ميراث ابنته بعد عامين على موتها. لماذا حزنه ليس كحزن فاطمة؟ هل جزع النساء على أطفالهن أكبر وأصدق من جزع الرجال؟ هل تحب فاطمة سعاد أكثر مما أحب سكينة؟

كانت درة عينيـه وريحانة قلبه. فكيف تهاون بموتها حتى بات يناقش حيل المواريث؟

يمور قلبه أسـىً. تسـيل دموعه داخله ويشد على عصاه محاججًا أمام الناس.

- سامحيني يا سكينة. سامحيني يا ابنتي.

* * *

عاشت سكينة تسعة عشر عامًا زوجًا لـ بشير النابر.

تسـعة عشر عامًا ذاق فيها الهناء وعرف جوهر السـعادة. ما الدنيا إلا عيش في كنف المحبوب.

على سريره وهو يسعل تخالطه الهلاوس. يئن في إعياء لكنه يسمع صوت سكينة. كانت تغني همسًا:

"يا حنوني/ عليك بزيد في جنوني

من يوم عشقت جمالك/ جيوش هواك أضنوني

تزيد عليّ في دلالك/ وأزيد عليك في فنوني

من نورك المتوقد/ يا الأخضر الليموني

خطفت موية بصري/ وعميت عليّ عيوني"

كانت أغنيتها المفضلة لعشة الفلاتية. تغنيها وهي تملأ البيت بحضورها الوهاج. تغنيها وهي تملأ حياته بحضورها المفرح.

يحس كفها التي يعشـق على جبينه. كان يحب كفها الصغيرة بأصابعها الممتلئة. يحفظ خطوط كفها الأربعة، بداياتهم وانحناءاتهم. كم مشى بشفتيه على هاته الخطوط.

ملكـه الهوى حتى ذاب عقله. ذلك ما أزعج الرضية. ازدرت عشـقه وارتماء قلبه عند قدمَي سكينة.

- عشنا حتى رأينا رجلًا من بيت الناير يذله الغرام!

خلقت الرضية معركةً من هباء مع سكينة. ربما كانت غيرة السلائف. ربما كان غضبها من مصاهرة بيت البدري.

نددت الرضية بخدي سكينة الناعمين بلا شلوخ.

- الشلوخ عادتنا وإرثنا. منذ خلق الله الدنيا ورجالنا ونساؤنا يفصدون خدودهم بالشلوخ.

يحاول زوجها العمدة محمد سعيد أن يثنيها عن معركتها.

- ما لنا ولخدود الناس يا الرضية؟ دعي المرأة لزوجها.

- ما لنا ولامرأة تعيش بيننا وصارت منَّا؟ أمها تجاهلت تراثنا فهل نسكت نحن؟

- يا الرضية إنها زوجة قارب عمرها منتصف العشرين. ستصبح أمًا في أية لحظة! فما جدوى هذا؟ إن أنجبت أعدك ألا أترك بشير إلا بعد أن يضع الشلوخ على خدود أطفاله. لكن ما حيلتنا في امرأة ناضجة؟

- لا كبير على تراثنا. حتى الأعراب يتشلخون. الشلوخ زينة وفخر.

- زينة زهدت عنها صاحبتها فما دخلنا؟

- أي عمدة أنت لا يدافع عن إرث قومه وتقاليدهم؟! لا يزعجك أبناء الحرام الذين تنجبهم الإماء. لا يهمك إن ترك الناس الشلوخ!

ربما غدًا يترك الناس طهارة البنات فلا تتدخل.

- لا حول ولا قوة إلا بالله! هل العمدة يطارد فروج البنات كمان؟

لا تصمت الرضية ولا تهدأ. تطارد سلفتها معايرة بخدّيها الأمرهين.

يصيب الحرج بشـير ولا يعـرف كيف يدافع عن زوجـه. لا يجرؤ أن يصطدم بكنته، ويرحم ضعف أخيه أمامها. يفر كلما طاردته:

- زوجك ما عادت طفلة. ليسـت "الما شـاء الله " الآن. ألا تخجل من خدَّيها الأمرهين كالعيال؟

كيف يخبرها أنه يحب خدَّي زوجه الناعمين بلا شلوخ؟

سكينة الملاك من لم يرضها غضب الرضية. كانت تكبرها بثلاثة أعوام فقط لكنها تجلها كأم. تنزلها منزلتها كزوج للعمدة وسيدة للقرية. هُرِعت إليها حين ملأت حجر نارتي نميمة غضبة الرضية. ما شاورت زوجها ولا تأخرت.

- أنتِ تاج رأس كل نسـاء حجر نـارتي يا رضية. الموت عندي أهون من غضبك.

- كلام! أنت تحسـنين الحديث فتعبثين بـ بشـير المسكين. لا تحسبيني مثله يا بنت البدري.

- أقسم بالشيوخ الوراريق لا أقول إلا ما أعني.

تبحث الرضية في وجهها عن مكيدة فلا تجد بسوحه إلا منزلًا للبراءة. عيناها غمامتان من الصدق تمطران حنانًا.

تزوم محذرة:

- لا تلعبي عليَّ بالكلمات يا بنت البدري! وحياة رسول الله أبو فاطمة لا أنخدع لك.

- وحياة سيدي رسول الله لا أخدعك ولا أرد لك أمرًا.

- لؤم لا يخيل عليّ.

قبلت سكينة أن تُفصَد إكرامًا لسلفتها. وألحت الرضية ظنًا منها أن المرأة تخادعها. دعتا عز القوم فجاءت ترج شحمها وتنوء بشيخوختها. طلبت منها سكينة أن تحمل الموسى وتفتح في خديها شلوخًا مستقيمة كعُرف قومها.

أمام نظرات الرضية المتعجبة مشت يد العجوز مهتزةً بالموسى على خد سكينة. سال الدم والمرأة مغمضة عينيها تعض شفتها بلا صوت. حشت عز القوم الجروح بقماش الكتان المغموس في الكمون والبن.

فتحت سكينة عينيها. الدم يُغرق وجهها. يسيل من جروحها الكتان ومسحوق البن. نظرت إلى الرضية. قالت بصوت باكٍ:

- هل يرضيك ذلك مني يا ستَّ النساء؟

انكسرت مغاليق قلب الرضية. تحطمت ترابيسه وقضبانه. غزته سكينة كما لم يفعل قبلها بشر. وما أدهش عز القوم أدهش الرضية ذاتها، إذ وجدت نفسها ترتمي في حضن سكينة معانقة، وتبكي.

- العفو لله والرسول يا بنت الأصول. العفو لله والرسول!

ما عاد أحد يسكن منزلة سكينة في قلب الرضية. ولعت المرأة المتزمتة بسلفتها وشغفتها حبًا.

مـن يومها ما عـاد أحد يجرؤ على التعرض لـ سـكينة. من يفعل تأكله الرضية حيًا.

أما بشير، فاكتشف أنه يحب خدَّي زوجه المفصودين بالشلوخ.

كان يهواها ويحب كل ما بها. ولو تغير فسيُحب ما تغير.

لا يحبها لما بها، لكنه يحب ما بها لأنه بها.

يلثم خدها ويمشي بشـفتيه على أخاديده. وتهبه سـكينة رضًا ما عرفه بشر.

جُنَّ بها. بات درويشًا غارقًا في غمرة الحضرة النبوية. يتطوح في هواها مرددًا "حي! حي! حي! سكينة! سكينة! سكينة!".

لا يفـارق البيت إلا ليعود عجـلًا. لا يطعم إلا ما تصنعه له. إن تأخر في أمـر خارج القريـة سرى ليلًا راكبًا أو راجـلًا، في البرد والمطر وهجير الصيف. فلا يبيت إلا عندها.

يضحك شقيقه محمد سعيد ويقول:

- أذل العشق أعناق الرجال.

سنوات هناء كُنَّ له فأتمهن.

ثم اغبرَّت الحياة وأدبرت.

* * *

تدخل عبير بيت حاج بشير عائدةً.

تهش لها نور الشـام. الصبية تحمل اسـم ابنة خالها. فتحبها لاسـمها، ولمودة خالتها الراحلة لها ولأمها. كما أنها -وهذا شيء لا يُقال علنًا- ابنة خالها عبد الحفيظ. تنادي الإماء عبير، لكن نور الشام تهشهن عنها. تقود الفتاة لترى خالها بشير.

يختبئ في حجرة مظلمة، سـيئة التهوية. دافئة لا يدخلها برد الدنيا. لا تراه عبير بوضوح. دهمة في ظلام الحجرة تحت غطاء ثقيل. صوت تنفسه يملأ المكان. رائحة الحجرة كبطن جوال بصل طال تعفنه.

تنادي نور الشام:

- عبير بنت فايت ندو هنا، تسلم عليك يا حاج.

يشخر حاج بشير ولا يتحرك.

يخرج صوت عبير مكتنزًا:

- سلامتك يا خالي.

يشخر الحاج مرةً أخرى، ويئن. غائب في هلاوسه مع سكينة. لا يعي ما حوله.

إنها تمطر في قلبه الآن.

تمر سكينة مرَّ السحب في خياله. تدندن "*إذا انتظرت وصالك / عواذلي ما بخلوني*".

يرجع إلى ليلة صيف يسهر فيها عند شقيقه. يتنادمان ويضحكان. كان هانئًا بلا هموم.

ثم أتته خادم فزعة.

- أدرك سكينة!

هبَّ فزعًا.

كانت ليلةً صيفية لكنه شعر بالبرد يجتاحه.

جرى مسرعًا.

أدرك سكينة.

كانت ليلةً صيفية لكنه يرجف وهو يركض بين الرمال.

تعيد نور الشام إحكام الغطاء حوله إذ تراه يرجف.

تخرج مع عبير إلى الفناء الواسع. تسألها عبير عن خدمة تقضيها لها.

- شكرًا يا أصيلة. البنات معي يخدمنني في كل ما أحتاج.

تتأملها. للصبية وهج لا تخطئه عين الأنثى.

- هل أنت بخير يا عبير؟

تهز رأسها أن نعم.

- هل هناك شيء؟ هل أنتِ في مشكلة؟

تهز رأسها أن لا.

تعرض عبير أن تعتني بالطفل أزهري.

- نام في بيت عمه. ستأتي به حاجة الرضية.

إن كانت الرضية آتية فلا بد أن تفر عبير. لا تريد أن تقع تحت عيني العجوز الفاحصتين. لا تريد صدامًا مع العجوز التي تكرهها كأنما خُلِقت من قيح الشياطين. تحتقرها الرضية وتهينها كلما قدرت. تجد لذةً في تحطيمها. أمها فايت ندو تصبرها.

- لا عليكِ بما تقول. هي امرأة عجوز، وهي زوج خالك. احترميها وأطيعيها.

لكن العجوز تنفر حتى من طاعة عبير لها.

قبـل أكثر من عام ونصـف عام دعتها الرضية في محـضر رفيقات لها. بلا إنذار ولا داعٍ. طلبتها لتسخر منها. أوقفتها في حضرتها وسألتها:

- هل تعرفين من هو أبوك؟

كانـت طفلـةً في الحادية عشر مـن عمرها. لكنها تعـرف ما تهمس به القرية.

- تعرفين أنك ابنة حرام. أليس كذلك؟

ضحكت النسوة.

- تعرفين أن مولود الحرام لا يدخل الجنة؟ هل درستِ هذا في المدرسة؟ أم يعلمونكم قلة الأدب والمسخرة في المدارس؟

تتململ عبير في وقفتها ولا تجيب.

- أنتِ بنت حرام، وأملِ أمة لا أخلاق لها. سـنزوجك بسرعة حتى لا تفضحينا كما فعلت أمك الفاجرة.

لماذا تضحك النساء؟

ماذا فعلتُ لكنَّ لتكرهنني بهذه الطريقة؟

تواصـل الرضية جلدها بلسـانها وهي مطرقة تختبـئ في الصمت. لا تتوقف العجوز.

حكايات حجر نارتي عن ذلك اليوم سـتصف صبر عبير الذي طال.

ستقول بعض النسـوة سرًا، خشية أن تسـمعهن حاجة الرضية: "كانت البنت مؤدبة. لكن الحاجة لم ترحمها".

ما كان لما فعلته سـبب. كانت تلهو فحسـب. تعبث بـ عبير وتُضحك جليساتها عندما رفعت الصبية رأسها.

قذفت بصرها في عمق عيني العجوز. نطقت بصوت متحدٍّ:

- أنا الأولى على فصلي بالمدرسة. وسأكون طبيبة.

ضحكت الرضية وخلفها الحاضرات. لكن عبير كررت في تصميم:

- سأسافر إلى الجامعة يومًا، وسأصبح طبيبة. وحين تمرضين لن أعالجك. سأدعك للموت.

وجمت النسوة. ذهلت حاجة الرضية.

- سأدعكِ للموت لأنك امرأة كريهة لا تستحق الحياة. سيشكرني الناس. سيقولون لي "شكرًا يا دكتورة عبير أنك تركتِ المرأة الكريهة تموت".

فزعت الرضية. صرخت:

- هل تدعين عليَّ يا بنت الحرام؟

عـادت عبير إلى الصمت لكنها لم تنكس رأسـها مـرة أخرى. ملأت نظراتها بالتحدي ورجمت بها العجوز.

كان ذلك هـو اليوم الذي أخذت فيه حاجة الرضية قرارها ألا تُرجع عبير إلى المدرسة.

توسـلتها فايت ندو. واعتذرت عبير بوجهٍ جامد وصوت لا ندم فيه. لكن العجوز تشبثت بقرارها.

لن ترجع عبير إلى المدرسة إلا على جثتها.

طلبت فايت ندو شفاعة السادة. لكنهم تملصوا منها متعجبين من فائدة المدرسة لفتاة من الرقيق.

سألها محمد سعيد الشيخ:

- هل حقًا تأملين في أن تصبح بنتك طبيبة؟

لم تحصل الصبية على اسم شاهيناز. ولن تصير طبيبة.

* * *

لم تكن سكينة مريضة. كانت مشرقةً كالشمس.

كانـت تضحك، تنـشر مرحها في البيـت. تعين خادماتهـا من الإماء والأعرابيات لتجهيز العشاء. يسهر زوجها عند شقيقه محمد سعيد، لكنه سيعود للعشاء. لا يأكل إلا عندها.

كانت تقول شـيئًا ما عندما صرخت وأمسكت جنبها الأيمن. تخضل وجهها بالعرق فجأة. ترنحت فأدركتها خادماتها قبل السقوط.

بهتت سريعًا.

جرت خادم تطلب حاج بشير.

هوت سكينة نحو العدم بلا مقدمات.

وعندما تعثر حاج بشـير على تـل الرمال الأخير قرب البيت، سـمع صراخ النساء.

داهمه الشلل في مكانه.

انطفأت سكينة فجأة. عاد وحيدًا كما خُلِق، ورجع العالم إلى الظلام.

تأخر يومها في الوصول. دخل فما وجد روحها الحلوة تهفهف في المكان. ما سمع منها كلمات أخيرة.

ناداها فلم تجب.

ضمها فلم تتجاوب.

احتشد الناس حوله. من *أين أتوا؟* متى *خُلِقوا؟*

- استغفر الله يا حاج بشير.

- أمر الله يا حاج.

- اذكر الله.

يربط وسطه بالعمامة ويتمرغ في الأرض.

تنوح حجر نارتي. يسمع نواحها حتى الآن.

اربد وجه القرية. عاش ينكره ويراه غريبًا.

كل شيء بلا سكينة لا شيء.

يراها الآن في هلاوسه تسري مشرقة.

- لماذا تركتيني يا سكينة؟

- ما تركتك يومًا أيها الحبيب.

- كان عمرًا بعدكِ لا يُحتسَب.

- كنت أنتظرك.

- هل تأخرت عليكِ؟

- لكل لقاء موعد.

- أحان موعدنا؟

- الآن إن تُرِد.

يمد يده إليها.

- خذيني.

- أتعرف إلى أين؟

- إلى حيث تغفو الأحلام. إليكِ.

تحضن كفه في كفها التي يعشـق. يحفـظ خطوط هذه الكف الأربعة. بداياتهم وانحناءاتهم. كم مشى بشفتيه على هاته الخطوط.

يمشي خلفها إلى النور.

يغيب هناك.

إلى الأبد.. جوار **سكينة**.

* * *

بلَّل الخبر حجر نارتي كنشع الماء في الحائط.

مشـت به النميمـة، وتسرَّب في الونس. غادر الشـتاء، ورفع الصيف رأسه يترقَّب. والناس يخوضون في الخبر ويبتسمون.

تولول فايت ندو:

- ستذبحك حاجة الرضية.

تصُكُّ خدَّيها وتصرخ.

عبير صامتة لا تهتز.

- فضحتينا! فضحتينا! فضحتينا!

ما عاد لكتمانٍ سبيل. تضخَّمت بطن عبير ففضحت كل شيء.

الصبية حبلى!

يجري الخبر بين الدور ويسامر النخيل.

ما كان فضيحةً عند الناس كما تصرخ **فايت ندو** بقدر ما كان تسـلية. يحاول الأهالي استنتاج اسم الأب.

- **محمد الصديق.**

- **مدثر نورين.**

- **أحمد شقرب.**

- **معاوية ولد سيد أحمد جبر الله.**

- **الطاهر إبراهيم.**

- **متوكل.**

- **عثمان ولد نفيسة.**

- **محمد إبراهيم البدري.**

- **الصادق عمر.**

- ابن الصائغ الذي من قريش بابا، ما اسمه؟ **سعد.**

- **خليفة عبد الكريم.**

الأسـماء كثيرة والقائمة طويلة. تُخرج حجر نارتي حكاياتها عن عبير. يتشـاركها الجميع. كل من عرف أو ظنَّ شـيئًا يُخبر به. من لا يعرف شيئًا ولا ظن عنده يختلق شيئًا.

- مرةً قبضتها مع مرتضى ولد الباقر في بيت العمدة القديم.

- كنت أراها تدخل العيادة بعد المغرب وحدها، وتغيب زمانًا.

- جريئة جدًا. اسألني أنا. شُفتها مع العيال خلف المسجد.

تسري الحكايات بين الناس. صحيحها ومكذوبها. يمتزجان ويطاردان فايت ندو.

- كنت مستعدةً أن أموت لأجل أن تصبحي طبيبة. كنت أنتظر أن ترفعي رأسي وتخرجي بي من هذه القرية. ماذا فعلتِ بنفسك وبي يا بنت بطني؟

تتغافل عنها عبير.

- نحن وحيدتان. ليس لنا أحد. لا تغرَّنك الهياكل والعمائم. الكلمات الحنونة، ودعاء "خالي". نحن وحيدتان. ليس لنا أهل ولا مال ولا احترام. كل اللائي يعانقنني يضمرن لي احتقارًا. ليست الرضية وحدها من تحتقرنا. نحن المتناسلون من اللامكان في قرية تتفاخر بالأنساب. لا يحترمنا أحد إلا بمقدار ما يحتاجون إلينا وما نُظهر لهم من أدب وطاعة. أنتِ لستِ بنت البدري، ولا من بيت الناير، ولا أبوك صاحب أطيان. أنتِ بنت فايت ندو. ليس لك غيري وليس لي غيرك. لماذا تظنين خالك عبد التام فرَّ من هذه القرية؟ لقد نجا بنفسه. لم نعد رقيقًا، لكن مهما فعل فسيظل عبد التام ولد عز القوم. لن ينسى أحد أصله في قرية لا تنسى. كنت أحلم أن تصبحي

طبيبةً لنفرَّ معًا. في العاصمة لا أحد يعرفنا. لا أحد يعرف عز القوم. كنتِ لتكوني طبيبة وأكون أم الطبيبة. فماذا فعلتِ بنفسك وبي؟

تأكلها الحسرة إذ ترى كوة الهرب تُغلَق أمامها.

كانت تعلم مكانها في **حجر نارتي**. كانت تُخادع نفسها والقريةَ في انتظار لحظة النجاة. حين تصبح أم الطبيبة. لأربعة عشر عامًا كانت تحلم باليوم الذي تفر فيه من القرية ولا تعود. عاهدت نفسها أن تبصق على بحر النيل وتصرخ فيه "نجوت منك. نجوت من الغرق".

لما منعت حاجة الرضية بنتها عن المدرسة ظنَّت أنها كبوة في درب الحلم. لم تفتر همتها لعشرين شهرًا عن التوسل وتطييب خاطر العجوز حتى تسمح لابنتها بالرجوع إلى فصلها. قدَّرت أن تأخُّر عام دراسي أو عامين ليس إلا عثرةً في طريق الفرار. دروب النجاة عادةً ما تعترضها الصعاب.

لكن الدروب انقطعت الآن.

لن تسامحها حاجة الرضية أبدًا، ولن تذهب أم مولود بالحرام إلى الجامعة.

رمت عبير مستقبلها لتعيش عيشتها. ستكرر سيرة أمها وتظل حبيسة هذه القرية.

ربما حان الوقت لتعلمها طريقتها في صنع الخمور البلدية.

لعلَّ الناس تحب "**عبير ووكر**" كما أحب أباؤهم "**فايت ندو ووكر**".

* * *

يشعر **أحمد شقرب** بالخديعة والحصار.

لا يعرف هل هو ابنه من تحمله **عبير** أم ابن غيره. سمع الأسماء الكثيرة فأصابت غروره الذكوري في موجع.

عـرض على **عبير** الزواج أكثر من مرة. ما كانت تقبل بوضوح، لكنها كذلك لم ترفض.

كان خطتها الثانية للهرب. ادخرته لما بعد فشل شفاعة **الرشيد النابر**. لكن الحمل أجهض خديعتها.

لا يصدق كم كان غبيًا.

لجأت إليه قبل أسابيع لتخبره أنها حامل منه! قالت له:

- تزوجني ونفر.

هل كان فعلًا ليتزوجها لو لم يحدث ما حدث؟

- الوضع تغير الآن يا عبير.

أين يفر بصبية حامل؟ هـل يرجع بها إلى العاصمة ليواجه أمه وأهله وأصدقاءه؟

- نذهب إلى العاصمة. لا أحد يعرفني هناك. لا أحد يهتم بنا هناك.

- أنت لا تعرفين الخرطوم يا عبير. إنها قرية كبيرة. حجر نارتي أخرى، فقط بها كهرباء وشوارع أسفلت. لن يرحمنا أحد. لن يقبل بي أهلي وقد تزوجت بك.

تتساقط ادعاءاته السابقة. يكاد يرى نفسه عاريًا، لكنه يسرع إلى حجة "تغيُّر الوضع" فيستر بها عورته.

"لولا حملها لتزوجتها. لكن أيٌّ فضيحة هذه أن أتزوج صبيةً تنجب بعد خمسة أشهر من الزواج؟"

ثم تدهمه حكايات الأهالي فيفزع. هل كانت كل هذه الأسماء تشركني عبير؟

مزارعون وصبية وكهول ومراهقون. كل هؤلاء شاركوه الجسد النحيل اليابس كسعفة؟

- كنت تعرف.

- لم أكن أعرف أنهم كثر.

- هل يختلف واحد عن عشرة؟

- يختلف.

- ما الفرق؟

يرتج، ولا يعرف بما يجيبها. يكرر في انكسار:

- يختلف.

ذهبت عنه ببرودها الذي أقبلت به.

تركته لألسـنة الأهالي ومزاحهم. كلما رأوه هشُّوا وهزلوا معه بحمل الصبية! لم يُظهر أحد غضبًا عليه. مأزقه مزحة عندهم؛ فهو لم ينتهك حرمة أسرة، إنما -فقط- جعل صبيةً من نسل الرقيق حبلى.

يضحك سليمان الحواتي ويقول له:

- هذا فعل الإماء وعهدهن منذ خلق الله الدنيا.

رغم ذلك يحسُّ بالحصار. يود لو ينسى الناسُ وينسى. ما كان أغناه عن كل هذا. تبع شهوته فأصبح حكايةً وونسًا. لا شك أن الصبية ساحرة. لقد فتنته بشيءٍ غير بشري. ما كان ليتصرف هكذا لو كان بوعيه. إنها خطيئتها وجريمتها. هو ضحية بريئة خُدِعت واستُدرِجت إلى شِراك لا قِبل لها بها. يأوي إلى ذلك التفسير طاهر الذيل. يتنهد مطمئنًا.

سينسى الناسُ وينسى.

لا خوف عليه.

أما الصبية.. فلتدفع ثمن عهرها وسحرها.

* * *

تخرج فايت ندو متحاشيةً الفضيحة قدر طاقتها. تمر في الدروب الخاويات عند مشرق الشمس. تقصد بيت محمد سعيد الشيخ.

تحمل تذلُّلها وانكسـارها في محاولة أخيرة للشفاعة. لعلَّ المعجزات لم تنفد بعد. معجزة واحدة أخيرة. معجزة صغيرة لأجلها لن تخرق ناموس الأرض ولن تفسد تدبير السماء.

معجزة واحدة لأجلي بحقِّ رسول الله والأولياء الصالحين.

تمشي جزعة. يحملها خوف ويُقعدها وجل.

تطرق بيت سادتها فتجد الشيخ المهاب على مصلاته قرب الباب. تقف بين يديه خاشعة.

- صباح الخير يا حاج.

يرفع رأسه ينظر إليها. الأمة الودود التي تقاربه سنًا. عاشا عمرًا كاملًا معًا في بيت والده حيث وُلِدت. كانت أمها عز القوم ترعاه وتشرف عليه طفـلًا. فكانت فايت ندو رفيقته الدائمة. ما كان له أخوات، فعدَّها لزمنٍ أختًا. يتسارع تساقُط حبات مسبحته.

- صباح النور يا الأخت الحبيبة.

تجثو جواره.

- جئتك مستشفعةً بحقِّ ثدي أمي يا حاج.

يتوجّس منها، لكن وجهه لا يتغير.

- حبابك.

- ابنتي يا حاج!

- تستشفعين في عظيم.

- إن عظم فشفاعتك أعظم.

- يا ندو هذا أمر لا تقبل الحاجة فيه شفاعة.

- لا أطلب إلا رضاها. مستعدة أن أُقبّل الأرض تحت قدميها إن أذنت لبنت بالرجوع إلى المدرسة.

- أمر الله نافذ يا أختي.

- أقسمت عليك بمعزة الراحلين، حاج بشير وأمي عز القوم.

- أمر الله نافذ.

تصمت وتسيل دموعها. يتركها محمد سعيد لحزنها. لا يملك لها نفعًا. سيجف بحر النيل قبل أن تبرد نار قلب الرضية على الصبية. لا ابن أنثى يجرؤ على معارضتها في هذا الأمر بعدما افتُضِحت عبير بالحمل. لا زوجها محمد سعيد الشيخ ولا حتى الناير الكبير لو قام من قبره.

ستعرف فايت ندو ذلك الآن حين تخرج حاجة الرضية من ناحية المطبخ تتبعها أعرابية تحمل أواني شاي الصباح.

تقطب العجوز إذ ترى فايت ندو في جثوها جوار الشيخ.

تغمغم بصوت مسموع:

- أصبحنا بالله.

تهـبُّ فايت ندو دامعة. تتعلـق بالمرأة وقد عزمت عـلى إراقة جميع ما عندها من توسل تحت قدميها.

- بحقِّ الله ورسول الله تعفي عنها يا حاجة.

تنفض الرضية يدها بعيدًا عن الأم الملتاعة.

- لا أنتِ ولا ابنتك تعرفان الله ولا الرسول. ولا أمك ولا كل سلفك. أصل ملعون وسلالة نجسة.

- يـا حاجـة حكمـك فيَّ نافـذ، وقولـك فيَّ مقبول. لكـن اعفي عن البنت.

- ما كنتُ بنتَ أبي إن فعلت.

- اقتليني واعفي عنها.

- تستحقين. فما فعلتْ إلا ما فعلتِ.

تشعُّ الرضية كراهية. ليس في قلبها موطئٌ لمرحمة. تستعصي مغاليقها على توسلات فايت ندو. حجر صوان لا يلين. رحم الله سكينة بنت البدري. هذه حوبتها ومكان فقدها. ما كان بهذه القرية قلب حنون إلاها.

قام **محمد سعيد** الشيخ إلى مجلسه أسفل شجرة اللبخ أمام البيت. تبعته **فايت ندو** كسـيرة القلب. صبَّت له **الرضية** الشـاي. ملعقتان من السكر وأشار لها حسبك. دعا **فايت ندو**:

- اشربي الشاي يا ندو.

شكرته بتمتمةٍ لا صوت لها. قال:

- منذ سنوات لم نشرب الشاي معًا. ربما ثلاثين سنة أو أكثر. ما عُدت أذكر.

ودَّت لو جرؤت أن تقول له:

- ما حفظت عشرة ذاك الزمن.

حركت شفتيها لكن العبارة خرجت منها "كانت سنوات خير، وكنت نعم الأخ".

تنهرها **الرضية**:

- هل هناك أمر آخر غير بنتك بنت الحرام وما في بطنها؟

يعارضها **محمد سعيد** في حرج.

- لا يليق يا حاجة.

- لا يليق أن يصل أخوك القادم هناك فيجد هذه الخادم تحادثك محادثة الحرائر.

التفت **محمد سعيد** فرأى **الرشيد** مقبلًا على موعده معه. انقبض قلبه.

ما هذا الصباح العسير.

أشار لـ **فايت ندو**.

- معذرة يا **ندو**. بيننا وبين **الرشيد** حديث سر.

هزَّت رأسها حسيرة. هتف بها:

- عودي في وقت آخر. سأحب أن أشرب معك القهوة ونتحدث كما كنا نفعل في صبانا. فقدت المرحوم بشير وما عاد لي ونيس.

رمقتـه **الرضيـة** بنظـرةٍ متوعـدة، فأظهر انشـغاله بالنظر إلى **الرشـيد** القادم.

انصرفت **فايت ندو** كظلٍّ حائط يفر أمام المساء. مرَّت بـ **الرشيد** فرمت إليه سلامًا باهتًا. فحَّ قلبه بالنار. حين بصر بها من بعيد ما ظنَّ خيرًا. لماذا يطلبه شقيقه باكرًا ويجد عنده **فايت ندو**؟ هل وشت به **عبير**؟ لا يعرف أحد سرَّ همـا، فلعلها فضحته لتُخفي عارها. ما كان أحد ليعيب عليه لو كانت أمةً غيرها، أما عبير فهو في مقام خالها. سـيلوكون سمعته زمانًا. سيصبح حكاية القرية وونسها. الفاجر الذي أحبل بنت أخته! يا لعاره.

جلس أمام شـقيقه **والرضيـة**. يهرب بعينيه منهما. ليتـه طاوع **عبير** لما هُرِعت إليه قبل أسابيع لتخبره أنها حامل منه. أغضبها إذ تنكَّر. أمرها أن

تقصد أحمد شقرب لتضع حملها، لكنها صاحت في جنون:

- أموت قبل ذلك.

قال لها:

- لماذا العناد؟ إنه حمل لا يجلب لك ولي إلا المصائب. تخلصي منه دون أن يعرف أحد.

- وماذا عن شقرب؟ ألا تخشى أن يعرف سري؟

يقول في خفوت:

- بينك وبين شقرب أسرار كثيرة. فليكُن منها هذا.

- أيُّ أسرار بيني وبينه؟

يرتبك. يخبرها أنه يعرف. عرف يوم منحت شقرب نفسها تحت نخيل شقيقه. لمحهما بعض العابرين فتحدَّث الناس عنهما هازلين. وشاهدها تنفلت وراءه أكثر من مرة إلى العيادة.

- لم يزعجك ذلك؟

يستحي أن يخبرها أنها أمة فلا يتوقع منها إلا ذلك.

يرقص اللهيب في حدقتيها وتذهب. الآن يخشى أن تكون انتقمت منه.

لكن شقيقه ينقذه من توجُّسه، ليدفع به إلى هاوية أخرى.

يخبره لماذا طلبه فيعصف به الذهول!

* * *

لا تنسى الحكايات ليلة مات بشير الناير.

يمر الزمان مع بحر النيل، ولا تذبل الحكايات. تتوالد في مجالس القرية. يغذي بعضها بعضًا.

تتحدث القرية عن مذابح السلطة الجديدة. دكَّ الطيران جزيرة أبا على النيل الأبيض جنوب العاصمة. قُتِل إمام أنصار المهدي. توحش النظام. وقف رئيسه الضابط يخطب:

- الثورة يسار لا مكان فيها لليمين.

يُعزُّون بيت البدري الموالي لأنصار المهدي، لكنهم يخشـون العسـكر فيظهرون لامبالاة.

يحكون عن أحمد شقرب وكيف فرّ. يذكرونه بالخير دائمًا.

يضحكون على ما حدث ليلة مات بشير النايرِ!

كانت ليلةً شـتوية، ينهش صقيعها الجلود الخشنة. مشى الخبر الحزين في الدروب. مات الحاج بشير النايرِ. فتك به المرض السيئ.

سرى الناس من بيوتهم مشدوهين. يُعزِّي كبيرهم صغيرهم. يتواصون بالصبر ويتبادلون النواح.

مات الحاج بشير النايرِ. فلتصُك البيوت وجوهها، ويعوي النخيل.

لا أنيس .. لا أنيس.

مات الحاج بشير النايرِ.

ما حاول محمد سـعيد أن يتجلَّد. بكى كطفلٍ رضيع. امتلأت شلوخ وجهه بالدموع. تمرَّغت نور الشـام في الأرض أمام غرفته. ربط الرشـيد عمامته على وسطه وجأر.

لا تنسى الحكايات تلك الليلة.

ومن بطن المأساة تخرج الحكاية الهزلية ليضحك بها الناس زمانًا.

غُسِّل الجثمان وكُفِّن، وبات الناس في برد الفناء ينتظرون الصباح للدفن. جماعات متفرقة تحيط بالنار الموقدة طلبًا للدفء.

أكل البرد قلب سـليمان الحواتي؛ فتسـلل يطلب غرفـةً دافئة يلوذ بها. كلما مدَّ رأسه في حجرة وجدها مكتظةً بالناس والهمس الحزين. مشى في

البيت يبحث عن مكان يؤويه. كانت غرفةً وحيدة خالية. في الظلام رأى كتلةً سوداء على سرير واحد. هذه غرفة تنكبها الناس. مشى في الظلام نحو السرير. رائحة نفاذة تملأ المكان. همس سائلًا:

- عبد الرازق؟

يُقسم سليمان الحواتي أنه سمع غمغمةً خافتة أكدت ظنَّه. عبد الرازق سبقه إلى الغرفة واحتل سريرها الوحيد. يُقدِّر اتجاه الرأس ويتمدد عكسه على السرير. القدمان مقاربتان لوجهه. يكِز صاحبه بمرفقه ويقول:

- أفسح لي مكانًا.

لا يجيبه ولا يفسح. يكِزه مرةً أخرى.

- عبد الرازق! أفسح قليلًا.

تملأ الرائحة أنفه. يقترب من القدمين المنتصبتين. رائحة حنوط الجنائز.

- عبد الرازق؟

يمدُّ يده في الظلام. الجسد بارد متيبس. ينقلب على جنبه الأيمن ويُنزل يده يتلمَّس الأرض. فجعه البلل الذي خشيه. رأى سليمان جثثًا كثيرة، ما كان يفزع منهم ولا من قصصهم. لكنه لم ينَم على سرير جوار جثة من قبل. انخلع قلبه. يده على الأرض بللها ماء غُسل الجثمان. رائحة الحنوط تمسك به كأنما تحتضنه. يصرخ وينقلب على الأرض. يحبو بهلع وهو يتخبَّط

في الطين البـارد. صرخ وصرخ وصرخ. فتح باب الغرفة واندفع خارجًا يطارده الرعب.

لا تنسى الحكايات ما فعل.

يمازحونه زمانًا بتلك الغفلة وذلك الفزع.

حتى **محمد سعيد** الشيخ سيضحك على هذه الحكاية في اليوم التالي بعد الدفن. سيضحك كثيرًا حتى تسيل دموعه.

* * *

الأسرة أهم من كل شيء.

أهم من رغبـات المرء ورأيه. مصلحة الجماعة تحـدد ما يجب أن تحبه، وتحلم به.

علق الرشيد في هذا الفخ. ما استطاع فكاكًا.

قال له **محمد سعيد** الشيخ:

- اتفقنا جميعًا على هذا الرأي.

تلفَّت يطلب مهربًا، لكن حاجة الرضية كانت تقف هناك.

- مبروك.

تلعثم.

- لكن يا حاج!

- مبروك.

أيُقـاد إلى الغرق ولا يقـاوم؟ لكن أنَّا له أن يعارض شـقيقه المبجل؟ سيُزوجونه بـ نور الشام أرملة شقيقه الراحل! قُضي الأمر. لا رأي له وقد اتخذت الأسرة القرار.

- إنها أكبر مني يا حاج! بيننا أربع أو خمس سنوات!

- وهل هذا فرق يُذكَر؟ تزوج سيدنا النبي خديجة وهي أكبر منه بخمسة وعشرين عامًا.

- أنا لست نبيًا!

- استغفِر الله! هل من قدوة غير النبي؟

يناضل عبثًا في قيوده.

- لا رغبة لي في هذا الزواج يا حاج.

تنهره الرضية:

- هل يرفض رجل الزواج؟

- هل يُجبَر رجل على زواج لا يرغبه؟

يُلين له محمد سعيد الشيخ الكلام.

- يا ابن أمي هذا فيه خير لك ومصلحة لبيت الناير. لن نترك ميراث المرحوم لبيت البدري يلعبون به.

فتلعبون بي؟

أيُلقون به في بحر النيل فديةً للميراث؟

- لن يقبل آل البدري هذا.

- تحدَّث إليهم أعمامك. لن يرفضوا إن طلبتها.

هذا هو. اتحدت ضده مصالح البيتين. يغوص في مأزقه، بين حمل عبير وزواج إكراه.

هل ينقذه الاعتراف بما بينه وبين عبير من الزواج؟

- زوجة شقيقي! لطالما اعتبرتها أختًا كبرى.

- الاعتبار شيء، والحقيقة شيء.

لا فرار .. لا فرار.

عالقٌ هو في مصالح الأسرة. ولأجل الميراث سيفعل أهله أي شيء. تقول الرضية:

- أزهري ابن بشير ابننا، وماله مالنا وأرضه أرضنا. أنت عمُّه وأولى الناس به. فدعْ النواح للنساء وقُم بالأمر كالرجال.

المرأة، التي زُوِّجت بابن عمها لتكتمل مراسم تعميده، تدفعه إلى ذات المصير.

لو كنت مثلك يا رضية.

لو كان لي تزمتك والتزامك بالعرف.

لكني أضعف من تشددك.

لا حيلة لي ولا قدرة.

يزور بيت البدري مُجبَرًا. يطلب نور الشام للزواج والموت أهون عليه. يبذلون شروطًا ومطالبات فيُجيبهم مسلوبًا.

يلفي نفسه في أسابيع قليلة خطيبًا للمرأة التي عدَّها لعشر سنوات أختًا. عِرض أخيه وسكنه. يُهيِّؤونها له سكنًا. سينام في فراش شقيقه ويرث ماله وزوجه.

تُجالسه نور الشام شاحبةً كجثة.

- ليس بيدي شيء.

- كلنا عجزة يا رشيد.

- سامحيني على ضعفي.

يُظلِم وجهها. عيناها المستلفتان من خالتها سكينة بحيرتان من حزن.

- فليُسامحنا المرحوم.

يتأملها والإثم يملأ روحه. متوسطة الطول، نحيفة، في منتصف الثلاثينيات من عمرها. ليست حسناء، لكن فيها ملاحة مقبولة. أكبر منه عمرًا، وأم، لكن لا تأنفها النفس. لو لم تكن أرملة شقيقه.

يمشي بعينيه عليها.

هي أحلى من عبير التي خلبته فؤاده.

فليُسامحنا المرحوم.

يهيم في الدروب لا يعرف ما يفعل.

تكبر بطن عبير وتكبر معهـا الفضيحة. يقترب موعد زواجه وروحه عليلة.

يهزل جسده ويتمنى لو يُصاب بالمرض السيئ.

يدور الزمان، ويُقبل الصيف والغجر.

عاجز هو عن الفرار، عجز فايت ندو عن إنقاذ نفسها وبنتها.

يسأل نفسه هل حمل عبير منه أم خدعته؟

شريكه أحمد شـقرب ناء بالنميمة ومزاح القرية ففرّ. زار محمد سـعيد الشيخ وأبلغه اضطراره للاستقالة. سيرجع إلى العاصمة. لم تعد الشيوعية تهمـة، والبلاد كلهـا تغني لنجمة أكتوبر والبلشـفية وتجـارب الرجعية.

ربما له مكان هناك. ربما ينسى عبير وحملها وأوقاتها. سيفرُّ ليُشفى من السحر والساحرة.

سيرجع أحمد شقرب ... ـله، فكيف يفرُّ الرشيد من أهله؟

جذوره هنا، وحياته هـ . وُلِد في حجر نارتي، وها هم أهله يقتلونه في حجر نارتي. محياه ومماته هنا.

يستسلم لقدره. يترك نفسه لموج بحر النيل يحمله حيث شاء.

فليُزوجوه. لا شيء يهم.

* * *

كأنما كان حمل عبير على عجلة من أمره.

أتـمَّ أيامه فما تأخر. جاء المخاض في حينه كأنه باص محجوب. غامت الدنيا في عيني فايت ندو إذ نزل بابنتها الطلق. تمنَّت لو سقط فيعتقها. لكنه أبى. نزل الطلق بالصبية فصرخت وماؤها يسيل. ثم كأنه ريح انقضى. ما عانت كسائر النسوة الحُمَّل. كأنه يستعجل الوصول انقضى. بكى الوليد بين يدي جدته. متغضن تكسـوه الدماء. وأمه يسيل العرق على جسدها النحيل.

جموع النسوة الحاضرات لأجل المجاملة والفضول يباركنه.

- ربنا يحفظه.

- حمد لله على سلامة أمه.

- جناح جبريل يغطيه.

تتأمله فايت ندو. تذكر وليدتها متغضنةً بين يديها. حمل مكروه يضع حملًا مكروهًا. نسلٌ ما عرف الزواج منذ جاءت قافلة الرقيق بأم عز القوم.

ما أهوننا على هذه الأرض.

لا تمنحنا كرامةً.

يلهوا بنا رجالها ونشقى.

من أبوك أيها الباكي؟

تدفعه إلى عبير فتلقمه ثديها الصغير كليمونة.

- بركة بسلامتك يا بنتي.

هل هذه نظرة سعادة في عيني عبير؟

تعجز فايت ندو أن تخبرها بما تجهل. تهمس:

- سامحيني.

لا تنتبه عبير. تنظر إلى وليدها مشرقة.

لما التقم حلمة ثديها مشى فيها إحساس بلذة الخلق. هذا الرضيع منها، كأنه قطعة ناقصة من روحها تعود إلى مكانها. بدت في مرقدها مغطاةً بالعرق

كسيدة ناضجة حكيمة. أكسبتها الولادة الخاطفة بريقًا كأنما جلّتها.

ثم هبَّت الرضية كخبر شؤم.

يا للعجوز التي لا تغفر.

تمنَّت فايت ندو على الله أن تنســى، أو تغفل، أو تموت. لكن السماء ما استجابت للأمة. جاءت حاجة الرضية كقضاء لا يُرَد. تمشي يتبعها الغجري، وظلها على الأرض يضج بالكبرياء. قضت مشيئتها بما يكون. لا رادَّ لها.

قبل سـنوات لانت ورضخت لشـفاعة الشـافعين فتركت فايت ندو تنجب طفلـة الحرام وترجع بها إلى القرية. وها هي نبتة السـوء تتناسـل بمزيـدٍ من الشر. عزمت عـلى ألَّا تتهاون هذه المرة. سـتحرق قلب عبير وأمها كما حرقتا قلبها.

كانـت تشـعر باللهب يأكلها إذا انتهك شـخص ما تؤمن به. يسـتعر جوفهـا ويملؤها الغضـب. تندفع إلى القتال بلا هـوادة. كأنها قطة تهش عن هريراتها.

راودها زوجها كثيرًا أن تتنكَّب طبعها.

- يا حاجة دعي الخلق للخالق.

لكنها ما كانت تقبل بما دون فرض إرادتها كاملة.

- تقاليدنا يا شـيخ محمد! تقاليدنا هي كل شيء. لا مكان للسفه وقلة

الأدب. إن تركنا الناس يخوضون في العفن فماذا يبقى لنا؟

- الدنيا تتغير يا حاجة. والناس أحرار. لا يفعل أحد ما تفعلين.

- أنـا أقـوم دونهم بما يتكاسـلون عنه. أنـا أدفع عن تـراث أهلي كل ضرر.

يعرف أنها تبحث عن معنى لخضوعها الطويل لأهلها. يقتلها التعلق بـشيء ما يجعل لحياتها قيمـة. إن لم تقاتل دفاعًا عن ميراث الأجداد فلأيِّ شيء وهبت حياتها ورضخت لهم؟ لا قيمة لرضوخها إلا برضوخ الآخرين لها. وفي سبيل ذلك ستحرق قلبي فايت ندو وعبير.

ساومت فايت ندو قبل أسـابيع على ما تريد. الطفل مقابل أن تسمح لـ عبير بالعودة إلى المدرسة.

يومها بدا ذلك حلًا مناسـبًا في عيني فايت ندو. سـتتخلص عبير من المولود وترجع إلى الدراسة. بشيءٍ من الجهد ستنسى ما حدث. تعرف فايت ندو عدة نسـاء من حرائر القرية أنجبن مـن مغامرات عابرة، ثم تخلصن من المولود وتزوجن. تعرف نسوةً في بيت الناير فعلن ذلك، ونسين ونسي الناس لهن ذلك. ستلتئم حياة عبير وتدخل الجامعة. ستصبح طبيبةً ويفرَّان إلى العاصمة. هذا ثمن يمكنها دفعه.

لكن قلبها زغرد عند رؤية الوليد. سعادة عبير فتحت عينيها فأدركت هول ما اقترفت.

تمنَّت أن تنسى الرضية ما اتفقتا عليه. تمنَّت أن تغفل، أو تموت. لكنها ما نسيت، وما غفلت، ولم تمُت.

جاءت كما تجيء الساعة.

حملـت فايت ندو الرضيع عن صدر ابنتها. فزعت عبير وهبَّت تحاول اختطافه. لكن حاجة الرضية تلقفته بقوة. همست فايت ندو:

- سامحيني.

حملته الرضية متقززة. صرخت عبير. سـالت دمـوع فايت ندو. لطم الهول النسوة المجتمعات لأجل المجاملة والفضول.

مدَّت العجوز الطفل إلى مرافقها الغجري.

صالح الغجري، طويل، بكرشٍ ضخم يمتد أمامه. عيناه ملونتان كقومه، وبشرته بيضاء يكسوها الوسخ والقشف.

- هاكَ ما وعدتك.

يقول بصوتٍ غليظ ممطوط:

- ربنا يبارك لك يا حاجة.

تهجم عليه عبير فتدفعها الرضية. تسقط أرضًا وتتوسل. صوتها لأول مرة يُسمَع عاليًا وقد أنضجته نار فؤادها.

تمسكها أمها. تحتضنها وتبكي لبكائها.

- سامحيني يا عبير. فراق الأبناء غالٍ لكن أمَّك عاجزة.

تذهب الرضية وصالح الغجري بحملها.

يتركان لـ عبير الحسرة.

عصر ذلك اليوم، يرحل الغجر عن حجر نارتي ولا يعودون.

تُنهي حاجة الرضية بهديتها عهد العافية لأهل بهية.

وتحل بيت البدري من شرط نزول الغجر بأرضهم ليوافقوا على زواج نور الشام بـ الرشيد.

بضربةٍ واحدة تُنجز العجوز عدة مقاصد.

وبطفلٍ لا تقبله تفرض ما تريد.

كان ذلك أسعد أيامها.

* * *

"نحن وحيدتان. ليس لنا أحد"

* * *

تستيقظ فايت ندو على تسلل الشمس إلى الحجرة.

أنهكها البكاء والسهر جوار فراش عبير فنامت حتى استوت الشمس في قبة السماء. كانت جاثيةً على الأرض ورأسها متكئ على الفراش الخاوي.

هبّت فزعة! أين الصبية؟

تجري في الفناء يعضُّها الهلع. تخرج من الجانب المتهدم للحائط الخلفي. تنادي عبير بصوت عالٍ. لم تكن الصبية تقضي حاجتها في الخلاء وراء البيت. ترجع أمها إلى الفناء. تدخل الحجرة مرةً ثانية. تتفقد الفراش الخالي كأنما تختبئ ابنتها في ثنياته.

لما أعجزها الخواء هُرِعت إلى بيت محمد سعيد الشيخ.

دخلت على حاجة الرضية كريحٍ عاصفة.

- أين ابنتي؟

تجهمت الرضية.

- أصبحنا بالله. لماذا تكون ابنتك عندنا؟

تجري فايت ندو بجنون في بيت الشيخ تنادي ابنتها. تدخل كل الغرف. تفاجئ محمد سعيد الشيخ في خلوته. لا يوقفها شيء.

يجتمع حولها أهل البيت، شيخ الخط محمد سعيد والإماء والأعرابيات. إلا الرضية، تنزوي مغمغمة:

- بنت الحرام أين تذهب؟ أكيد مع واحد من ملاعينها.

يحاولون تهدئة فايت ندو. لكن قلبها متقد لا يسكن.

يتسرب الخبر من بيت الشيخ ويطرق الأهالي. يتبعونه حتى مجثى فايت ندو الباكية في فناء بيت محمد سعيد.

يتزايد الناس حولها وتتناثر التطمينات.

- خير يا فايت ندو. خير إن شاء الله.

- لا تتعجلي ظنَّ الشر.

- البلد صغيرة. أين تذهب؟ سنجدها.

يـبرز عبد الـرازق من بين الحشـود. يأمره محمد سـعيد الشـيخ بتتبع الأثر.

يمسك عبد الرازق فايت ندو من يدها ويُقيمها. يمشي معها وتتبعهما الحشـود. تتخلف عنهم حاجة الرضية في مطبخها ومعها من أطعنها من خدمها. ترعد العجوز:

- مصيبة تأخذها. بنت معجونة بالحرام. شيطانة من نسل شياطين.

مـن فناء فايت ندو يقتنص عبد الرازق أثر الصبية الحافي. ينكفئ عليه ويتبعه. والحشود تمشي خلفه وتتبادل التعليق.

- وجد الأثر.

- خرجت من البيت.

- مرَّت جوار المسجد.

ينحدر عبد الرازق وراء الأثر حتى تتغير الأرض. يختفي الرمل ويظهر التراب الأسود الخصب. يمرُّون أسفل النخيل فيتبعهم فضوله. يحلق فوقهم الطير وتلحق بهم رائحة الجوافة. يتجه الأثر الحافي شرقًا لا يحيد. في قلب الحشود يمشي الرشيد معينًا شقيقه محمد سعيد. يرجف قلبه. يمرُّون ببقية أطلال الغجر الراحلين أمس. يتهامس الناس:

- ذهب الغجر؟

- ألم تعرف ما حدث؟

- ما الحكاية؟

يمر بينهم خبر ما فعلت حاجة الرضية من شفاهٍ إلى شفاه. يتعجبون ويستعيذون بالله ولا يُعقِّبون.

يسير الأثر نحو المحتوم. درب واضح يترك علاماته على التراب يمشي نحو القيف.

يحل الوجوم بالحشود المجاملة والفضولية.

ينحني عبد الرازق على الأرض أكثر. يمشي حتى منتهى الأثر.

يقف عند حافة بحر النيل.

ينظر إلى الموج أسفله.

يبلع ريقه ويضع كفيه على وسطه.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

يلتفت إلى متعقبيه. عيناه في عيني فايت ندو. يملأ الأسف ملامحه.

فزع النخل لما دوت صرخة فايت ندو من جوف محترق:

- عبير!

* * *

بعد ثلاثة أيام رأى سـليمان الحواتي فاطمة أم الصبية تهرول على حافة بحر النيل متجهةً شمالًا.

أنبأها من ينبئها أن جنازةً لفتاةٍ غارقة ظهرت، فخرجت تسـعى إليها لعلها تكون سعاد.

* * *

الخاتمة

■ ما زالت فايت ندو تعيش في حجر نارتي وقد قاربت المئة من العمر. يتكفَّل بمعاشها الرشيد الناير وزوجه نور الشام.

■ بعد إلغاء النظام للإدارة الأهلية لم تعد لبيت الناير سلطة، لكن لقب العمدة ظلَّ متوارثًا بينهم.

■ استمر النظام العسكري في الحكم لستة عشر عامًا، حتى أبريل 1985. ارتكب مذابح عديدة. قصف جزيرة أبا بالطائرات فقتل نحو 10 آلاف من أنصار المهدي، وأعدم عددًا من قادة الحزب الشيوعي. تخلى عن الأفكار اليسارية وتحوَّل إلى اليمين وأعلن الحكم بالشريعة الإسلامية وأعدم على الردة.

لا توجد إحصائيات دقيقة بمن قُتِلوا خلال الأعوام الستة عشر.

■ انتقلت حاجة الرضية إلى العاصمة بعد وفاة زوجها محمد سعيد

الشيخ. عاشت مع أحد أبنائها. عمَّرت طويلًا، وأُصيبت بالعمى في آخر حياتها.

■ اعتُقِل أحمد شقرب لفترةٍ بعد تنكيل النظام بالشيوعيين، ثم حصل على وظيفة في المملكة العربية السعودية وانتقل إليها في آخر السبعينيات.

■ أنجبت نور الشام للـ رشيد ولدين. سُمِّي أكبرهما بشير على عمه الراحل.

■ ما زالت فاطمة أم الصبية تظهر، تنتظر جثة سعاد.

النهـايـة

شكر وتقدير

من الواجب أن أتقدم بالشكر لكل من أعانوني في كتابة هذه الرواية، بدعم وإطلاع ورأي ومراجعة ونقاش.

الصديقة **مها البدري**، والصديقة **هدى شفيق**.

والأستاذ **أحمد مدرة** على مراجعته اللغوية وتدقيقه.

والصديق السينمائي والفنان **طلال عفيفي** على جهده في توفير صورة الغلاف. وأسرة المرحوم المبدع **جاد الله جبارة** على تفضلهم الكريم بالموافقة على إستخدام الصورة.

لهم أتقدم بوافر الشكر، والعجز عن وفاء الأيدي التي أولوني إياها.

صورة الغلاف بورتريه فني من تصوير **جاد الله جبارة**. وهي صورة رمزية لا تمثل شخصية في الرواية بعينها.

حمور زيادة

صدر للمؤلف:

1 - **سيرة أم درمانية** – مجموعة قصصية

دار الأحمدي للنشر – القاهرة 2008

2 - **الكونج** – رواية

دار ميريت للنشر- القاهرة 2010

دار العين للنشر – القاهرة 2015

3 - **شوق الدرويش** – رواية

دار العين للنشر – القاهرة 2014

* جائزة نجيب محفوظ للأدب 2014

* القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية 2015

4 - **النوم عند قدمي الجبل** – مجموعة قصصية

دار ميريت للنشر – القاهرة 2014

دار مداد للنشر والتوزيع – دبي 2016

5 - **الغرق**- حكايات القهر والونس – رواية

دار العين للنشر – القاهرة 2018


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

الغرق

حكايات القهر والونس

تكدس الأهالي أمام العيادة رجالاً ونساءً وأطفالاً
ستعيش هذه الحكاية طويلاً وتمتزج بالونس. "ليلة
حنة عبد الحفيظ البدري لُدغ عبد الرازق". ستتبدل
الحكاية وتتغير. تزاوجها تفاصيل متخيلة، وتفارقها
حقائق حدثت. في الونس لا يهم ما حدث. إنما يهم أن
تكون الحكاية ممتعة حين تُروى.

صورة الغلاف: بورتريه من تصوير الفنان جاد الله جبارة



